رسائل قرآنية





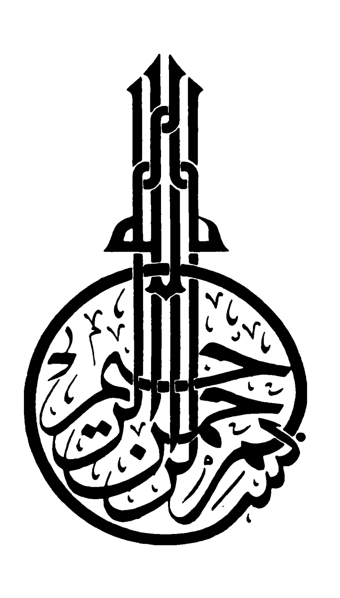


إعداد

صالح أحمد الشامي



دمشق




رسائل قرآنية



الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

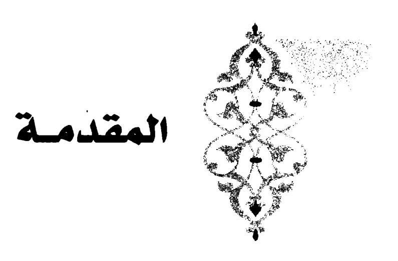
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤



المقدمـة

الحمد لله ربِّ العالمين، حمداً طيباً مباركاً فيه، وأفضل الصلاة وأتمُّ التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم على سيّدنا محمد ﷺ منجَّماً ـ مفرَّقاً ـ في ثلاث وعشـــرين سنة، ولم ينزله دفعة واحدة، وذلك لحِكَمٍ كثيرة، نذكر اثنتين منها:

فالعرب أُمَّة أُميَّة لا تعرف القراءة والكتابة، فكان نزول الآيتين والثلاث يسهِّل عليهم قضية الحفظ... يومئذٍ.

والأمر الآخر: أنَّ الله سبحانه أراد إنشاء هذه الأُمَّة وفقاً لهذا المنهــج العظيم الذي جاء به القــرآن الكريم، فكان النزول مفرَّقاً مســاعداً لهم على أمر التطبيــق، فما تنزل



الآيات حتى يكون المسـلمون قد أتقنوا العمل بما سبق نزوله من الآيات.

فكان حفظ الآيات مسايراً لتطبيقها.

وقد جاء في السُّنّة المطهَّرة أحاديث كثيرة تحثُّهم على تلاوة القرآن وحفظه، وتبيّن لهم مقدار الأجر العظيم لمن فعل ذلك.

وهكذا لما توفي الرسـول ﷺ كان القـرآن محفوظاً ومكتوباً، ومعمولاً به في واقع الناس.

ولما تقـدَّم الزمن في قرن التابعين اسـتمرَّ الناس على اهتمامهم بأمر تلاوة القرآن وحفظه، وبدأ شـيء من الفتور في أمر التطبيق؛ الأمر الذي شكَّل ظاهرة لفتت نظر الصحابة وعلماء التابعين إلى خطر هذا الموضوع، فارتفعت أصواتهم بالتنبيه على ضرورة العمل بالقرآن كضرورة الحفظ..

قـال عبد الله بن مسـعود رضي الله عنه: «أُنزِلَ القـرآنُ عليهم ليعملوا به، فاتخذوا دراسته عملاً، إنَّ أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسـقط منه حرفاً، وقد أسـقط العمل به»(١).

---

(١) المهذب من إحياء علوم الدين: (٢٣٠/١)، طبعة دار القلم.

وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: «اتَّخذْ كتابَ الله إماماً، وارضَ به قاضياً وحَكماً»[١].

واستمرَّ هذا النداء في التابعين.

فهذا محمد بن كعب القرظي - التابعي المشهور - يقول: «مَن بلغه القرآن، فكأنَّما كلَّمه الله، وإذا حصل ذلك، لم يتخذ دراسة القرآن عمله، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمَّله ويعمل بمقتضاه»[٢].

إنها كلمات مضيئة، ينبغي التوقف عندها، فإنها تعالج أمراً عظيماً من أمور الأُمَّة، وهو صلتها بكتابها.

وقد رأيت أن أتوقف عند كلمتين منها:

الأولى: لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه، إذ قال مخاطباً قارئ القرآن الكريم: «إذا سمعت الله سبحانه يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة: ١٠٤] فأرْعِها سمعك فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه».

وقد يسَّر الله لي جمع الآيات المبدوءة بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وشرحها وتمَّ إخراجها في

(١) مواعظ الصحابة، ص (٢٦١)، نشره المكتب الإسلامي.

(٢) المهذب من إحياء علوم الدين: (٢٣٩/١).



كتاب تحت عنوان: «نداء الإيمان في القرآن الكريم»[1].

الثانية: كلمة لإمام التابعين الحسن البصري رحمه الله تعالى، يقول فيها مخاطباً قرَّاء القرآن في زمنه:

«إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبَّرونها بالليل، وينفذونها في النهار»[2].

إنها كلمات قليلة، تحمل توجيهاً قيِّماً ومعلومة عزيزة نادرة، عايشها الحسن البصري، فنقلها إلينا.

هكذا كان جيل الصحابة ـ خير القرون ـ يتعامل مع القرآن الكريم..

إنه رسائل..

والرسالة إذا كانت قادمة من محبوب أو عزيز.. يقرؤها الإنسان مرات ومرات، يحاول أن يستخرج ما خلف الكلمات وما خلف السطور من معانٍ وأفكار.. وذلك حسب مكانة المرسِل من المرسَل إليه.

فإذا كانت الرسالة من الله تعالى خالق الإنسان ومكرِّمه إلى الإنسان، فكيف ينبغي أن تكون قراءتها؟!

---

(١) طبعته دار القلم بدمشق.

(٢) إحياء علوم الدين (١/٢٧٥).

إننا بحاجة ماسة إلى الاقتداء بالصحابة رضي الله عنهم، حتى يكون لقراءة القرآن أثرها في واقعنا الاجتماعي..

وقد حاولت بقدر جهدي الضعيف أن أقرأ القرآن بهذه الطريقة.. وخلال هذه القراءة اخترت عدداً من الرسائل أحببت أن يشاركني الإخوة الكرام الوقوف عندها.

وقد شرحت هذه الآيات الكريمة شرحاً مختصراً معتمداً على تفسيري «ابن كثير» و«الظلال»، ليرجع القارئ الكريم إليه بعد أن يقف أمام الآية محاولاً فهم ما تحمله من معان قبل أن يرجع إلى الشرح، فلعل الله ييسِّر له من الفهم ما فيه الخير، ثم يعود إلى الشرح إن رغب.

ومن المفيد: العلم بأن في القرآن الكريم أكثر من ستة آلاف آية، وبعض هذه الآيات يحمل الرسالة والرسالتين والثلاث.. وقد يكون العدد من الآيات يحمل رسالة واحدة.

وقد قدمت لهذه الآيات المختارة بفصل تحدثت فيه عن ضرورة توثيق صلتنا بالقرآن الكريم.

وإذا كان «الحسن البصري» هو صاحب الكلمة الباعثة



على كتابة هذه الرسالة، فمن المستحسن أن نذكر له ترجمة مختصرة نتعرف بها عليه.

هذا ما يسَّره الله تعالى وأرجوه ـ سبحانه ـ أن ينفع به.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

صالح أحمد الشامي

غرة ربيع الأول ١٤٣٦هـ

٢٠١٤/١٢/٢٣م



ترجمة الإمام الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

الحسن بن يسار ـ ويقال له أيضاً: الحسن بن أبي الحسن ـ أبو سعيد البصري، وُلد لسنتين بقيتا من خلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (سنة ٢١هـ) من أبوين جُلِبَا إلى المدينة من سبي ميسان[١].

قال الحسن: كان أبي وأُمي لرجل من بني النجار، فتزوج امرأة من بني سلمة، فساق أبي وأمي في مهرها، فأعتقتنا السلمية.

وفي رواية أن أباه كان مولى لزيد بن ثابت الأنصاري، وأن أُمه كانت مولاة لأُم سلمة، زوج النبي ﷺ.

ومهما يكن من أمر، فإن والدَيْ الحسن كانا رقيقين ثم أُعتقا.

وكانت أمه تخدم أم سلمة، فكانت ترسلها في الحاجة، فتشغل عن ابنها الصغير، فكانت أم سلمة

(١) هي: كورة بين البصرة وواسط.



تشاغله بثدييها، فيدران عليه، فيرضع منهما، فكانوا يرون أن تلك الحكمة والعلوم التي أُوتيها الحسن من بركة تلك الرضاعة.

نشأ الحسن ـ إذن ـ في المدينة، والتقى بالصحابة وسمع منهم.

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسيماً جميلاً، حتى كان ذلك علامة مميزة له، فقد قال الشعبي لرجل يريد قدوم البصرة: إذا نظرت إلى رجل أجمل أهل البصرة وأهيبهم فهو الحسن، فأقرئه مني السلام.

وكان من الشجعان الموصوفين، وكان المهلب بن أبي صفرة إذا قاتل المشركين يقدّمه.

قال محمد بن سعد: كان الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ جامعاً عالماً، رفيعاً، فقيهاً، ثقة، حجة، مأموناً، عابداً، ناسكاً، كثير العلم، فصيحاً، جميلاً.

وكان خطيباً فصيحاً، بل هو من أفصح الناس[1].

---

(١) هذه الترجمة ملخصة من: «سير أعلام النبلاء» ٥٦٣/٤ وما بعدها، و«البداية» ٢٦٦/٩ وما بعدها. وغيرهما.

علمه ووعظه:

كان رَحِمَهُ اللَّهُ المقدَّم في علمه، حتى أُطلق عليه لقب «شيخ البصرة».

فقد كان فقيهاً، محدثاً، مفسراً.. وأقواله منثورة في كتب الفقه والتفسير، وكذلك مروياته من الأحاديث منثورة في كتب الحديث.

وقد كان واعظاً متمكناً، له تأثيره على القلوب، ولعل هذا الجانب هو الذي غلب على شهرته.

وهو في وعظه مطبِّق لما يدعو الناس إليه، وهذا ما جعل له القبول في القلوب.

وقد تحدث مالك بن دينار، عن الذين كان لهم الأثر في القلوب فقال: «بلى والله، لقد رأيناهم: الحسن، وسعيد بن جبير، وأشباههم، الرجل منهم يحيي الله بكلامه الفئامَ[1] من الناس.

وقال الأعمش: ما زال الحسن البصري، يعي الحكمة حتى نطق بها، وكان إذا ذكر عند أبي جعفر، محمد بن علي بن الحسين الباقر، قال: «ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء».

---

(١) الفئام: الجماعة من الناس.

وقال الغزالي: «كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربهم هدياً من الصحابة».

ومن الكلمات الدقيقة الصادقة في تصويرها للحسن في وعظه، ما قال مطر الوراق في ذلك: «لما ظهر الحسن جاء كأنما كان في الآخرة، فهو يخبر عما عاين».

سلوكه وزهده:

قال أبو بردة بن أبي موسى الأشعري: «ما رأيت أحداً أشبه بأصحاب محمد ﷺ منه».

وقال خالد بن صفوان: لما لقيت مسلمة بن عبد الملك بالحيرة، قال: يا خالد، أخبرني عن حسن أهل البصرة؟ قلت: أصلح الله الأمير، أخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلم من قِبلي به:

«أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أَمَرَ بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه».

قال: حسبك يا خالد، كيف يضلُّ قوم هذا فيهم؟!

وكان الحسن دائم الأحزان، فقد غلب عليه ذكر الآخرة، ولكنَّ هذا لم يوصله إلى السلوك الأعجمي الذي بدأ يتفشى في زمنه.

فقد كان معتدلاً في طعامه، قال أبو هلال: «قلما دخلنا على الحسن؛ إلا وقد رأينا قدراً يفوح منه ريح طيبة».

بل كان له عناية بالفاكهة، وهي من النوافل في أمر الطعام، قال قتادة: «دخلنا على الحسن وهو نائم، وعند رأسه سلة، فجذبناها، فإذا فيها خبز وفاكهة، فجعلنا نأكل، فانتبه فرآنا، فسرَّه فتبسم وهو يقرأ: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

كما كان متأنقاً في ملبسه. قال يونس: «كان الحسن يلبس في الشتاء قَبَاءً حبرة، وطيلساناً كردياً، وعمامة سوداء، وفي الصيف إزارَ كتان، وقميصاً وبرداً حبرة».

وقال سلام بن مسكين: رأيت على الحسن قَباء مثل الذهب يتألق.

والذي يبدو أنه كان يلبس ما تيسر له، وقد سئل عن رأيه في أحب اللباس فقال: أغلظه وأخشنه، وأوضعه عند الناس.



وهــذا لا يعني إقراره لبعض النســاك في ذهابهم إلى قصد الخشونة في اللباس، بل كان ينكر عليهم، فقد ذكر عنده الذين يلبســون الصوف، فقال: ما لهم؟ تفاقدوا[١]... أكنّوا الكِبْرَ في قلوبهم..

وأما أثاث بيته فكان متواضعاً. قال مطر الوراق: دخلنا على الحسن نعوده، فما كان في البيت شيء، لا فراش ولا بساط ولا وسادة ولا حصير؛ إلا سرير مرمول[٢] هو عليه.

وهذه الصورة تذكرنــا بالصورة التي نقلها لنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ عندما قال:

(فدخلتُ على رســول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير، ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه، متكئاً على وسادة من أدم حشوها ليف.. فرفعتُ بصري في بيته، فوالله ما رأيت في بيته شيئاً يردُّ البصر..)[٣].

وإذن فقــد كان الحســن بفعلــه هــذا متأســياً برسول الله ﷺ.

---

(١) هذا دعاء عليهم بأن يفقد بعضهم بعضاً.

(٢) أي: سرير نسج من حصير.

(٣) متفق عليه. وقد تكررت الصورة نفسها في فعل عمر رضي الله عنه.



وكان محل إجماع العلماء ـ في زمنه وما بعده ـ في الثناء عليه، وكانوا يتناقلون أخباره في حياته.

قال أبو بكر الهذلي: قال لي السفاح: بأي شيء بلغ حَسَنُكُم ما بلغ؟ فقلت: جمع القرآن وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ثم لم يخرج من سورة إلى غيرها حتى يعرف تأويلها، وفيما أُنزلت، ولم يقلب درهماً في تجارة ولا ولي سلطاناً، ولا أمر بشيء حتى يفعله، ولا نهى عن شيء حتى ودعه.

وفاته:

عن أبان بن محبر قال: لما حضر الموت الحسن دخل عليه رجال من أصحابه فقالوا له: يا أبا سعيد، زودنا منك كلمات تنفعنا بهن.

قال: إني مزودكم ثلاث كلمات، ثم قوموا عني ودعوني لما توجهتُ له: ما نُهيتم عنه من أمر، فكونوا من أترك الناس له، وما أُمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به، واعلموا أنَّ خطاكم خطوتان: خطوة لكم وخطوة عليكم[1]، فانظروا أين تغدون وأين تروحون.

---

(١) أعطى الإسلام الوسائل حكم الغايات، فخطوات كل إنسان نوعان: فما كان في سبيل الخير كالذهاب إلى الصلاة فهو مثاب عليه، وما كان في سبيل الشر ففيه الإثم.



وقال صالح المـري: دخلتُ على الحسـن وهو في المـوت، وهو يكثر الاسـترجاع[1]، فقال لـه ابنه: أمثلك يسـترجع على الدنيا[2]؟ قال: يا بني، ما أسترجع إلا على نفسي التي لم أصب بمثلها قط.

وكانت وفاة الحسـن رضي الله عنه ليلة الجمعة في أول رجب من سنة عشر ومائة، وقد عاش كما قال ابنه، نحواً من ثمان وثمانين سنة.

وكانـت جنازته مشـهودة وصُلّي عليـه عقيب صلاة الجمعة بالبصرة، فشيّعه الخلق وازدحموا عليه.

قال حميد الطويل: وحملناه بعد صلاة الجمعة ودفناه، فتبـع الناس كلهم جنازته واشـتغلوا به، فلـم تقم صلاة العصر بالجامع، ولا أعلم أنها تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذٍ، لأنهم تبعوا كلهم الجنازة، حتى لم يبق بالمسجد من يصلي العصر.

فرحم الله الحسن وأسكنه فسيح جناته.

❀ ❀ ❀

---

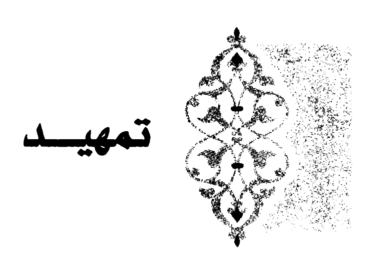
(١) هو قول: إنا لله وإنا إليـه راجعون، وقد جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

(٢) ظن الابن أنَّ أباه يسترجع بسبب ما فاته من الدنيا بسبب الموت.



الفصل الأول

توثيق الصلة بالقرآن الكريم



تمهيد

«نحن أحوج ما نكون إلى الإحساس بالقرآن ورؤيته كائناً حيّاً دافعاً، فقد بَعُدَ العهد بيننا وبين الحياة الإسلامية، والواقع الإسلامي.

وانفصل القرآن في حسِّنا عن واقعه التاريخي الحي.

ولم نَعُدْ نذكر أنه كان هو «الأمر اليومي» للمسلم، وهو التوجيه الذي يتلقاه للعمل والتنفيذ.

مات القرآن في حسِّنا.. أو نام، ولم تعد له تلك الصورة الحقيقية التي كانت له عند نزوله في حسِّ المسلمين.

ودرجنا على أن نتلقاه إما ترتيلاً منغماً نطرب له، أو نتأثر التأثر الوجداني الغامض السارب، وإما أن نقرأه أوراداً، أقصى ما تصنع في حسِّ المؤمنين الصادقين منا أن تنشئ في القلب حالة من الوجد أو الراحة أو الطمأنينة المبهمة المجملة.. والقرآن ينشئ هذا كله.



ولكن المطلوب ـ إلى جانب هذا كله ـ أن ينشئ في المسلم وعياً وحياة، نعم المطلوب أن ينشئ حالة وعي يتحرك معها القرآن حركة الحياة التي جاء لينشئها..

المطلوب أن يتوجه إليه المسلم ليسمع منه ماذا ينبغي أن يعمل ـ كما كان المسلم الأول يفعل ـ وليدرك حقيقة التوجيهات القرآنية فيما يحيط به اليوم من أحداث ومشكلات وملابسات شتى في الحياة»[1].

وفي سبيل إدراك هذه الغاية، كانت هذه الرسالة، وهي جهد المقل.



(١) الظلال (٣٠٥/١).



١ فضل تلاوة القرآن الكريم

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر: ٢٩].

- **وعن عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: **(لا حسد إلّا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مـالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار)** متفق عليه.

- **وعن عثمان** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه)** رواه البخاري.

- **وعن عائشـة** رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: **(مثل الذي يقرأ القرآن، وهو حافظ له، مع السفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ، وهو يتعاهده، وهو عليه شديد، فله أجران)** متفق عليه.



- **وعن أبي أمامة الباهلي** ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه**) رواه مسلم.
- **وعن عبد الله بن مسعود** ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (**من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
- **وعن أنس بن مالك** ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن لله أهلين من الناس**) قالوا: يا رسول الله، من هم؟ قال: (**هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته**) رواه أحمد وابن ماجه والدارمي، وقال الألباني: صحيح.

إن هذه النصوص الكريمة ـ وغيرها كثير ـ لتؤكد فضل تلاوة القرآن الكريم وعظم ثوابها، فلا أثمن من وقت يقضيه المسلم في تلاوة كلام ربه تعالى في خضوع وهو يستشعر عظمة الله واطلاعه عليه وسماعه لتلاوته.

❀ ❀ ❀



٢ كيفية القراءة

ينبغي لقارئ القرآن أن يرتِّل قراءتـــه، وقد جاء الأمر بذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

والترتيل، هو القراءة على تؤدة وتبيين حروف.

- **وقد نعتت أم سلمة** رضي الله عنها قراءة رسول الله ﷺ: أنها كانت قراءة مفســرة حرفاً حرفــاً. رواه أبو داود والنســائي والترمذي.
- **وعــن عبد الله بــن المغفــل المزنــي** قــال: رأيــت رسول الله ﷺ يوم الفتح على ناقة له يقرأ سورة الفتح، قال: فرجَّع فيها. متفق عليه.

وقد كره الصحابة رضي الله عنهم الإسراع في القراءة.

- ففي الحديــث المتفق عليه، **عن أبــي وائل** قال: جاء رجل إلى ابن مسعود، فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال ابن مسعود: هذًا كهذِّ الشعر.

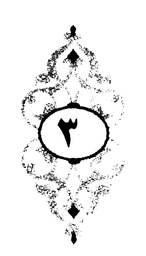
والهذ: شدة الإسراع والإفراط في العجلة.



- وفي رواية لمسلم، قال ابن مسعود: هذّاً كهذِّ الشعر؟ إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه، نفع.
- وفي البخاري **عن قتادة** قال: سـئل أنس: كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانت مداً، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يمد (بسـم الله) ويمد بـ(الرحمن) ويمد بـ(الرحيم).
- وفي المسـند: **عن ابن أبي مليكة**، عن بعض أزواج النبي ﷺ ـ قال نافع: أراها حفصة ـ أنها سـئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت: إنكم لا تستطيعونها، قال: فقيل لها: أخبرينا بها، قال: فقرأت قراءةً ترسَّلت فيها. قال نافع: فحكى لنا ابن أبي مليكة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثـم قطـع ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثـم قطع ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ رجاله رجال الشيخين.

إن الآية الكريمة والأحاديث التـي بعدها تبيّن كيف ينبغـي أن تكون قـراءة القرآن، وهي: أن تكـون آية آية، واضحة الكلمات مع مراعاة المدود.

❀ ❀ ❀



٣ تحسين الصوت بالقراءة

من المتفق عليه بين العلماء: أن تحسين الصوت بقراءة القرآن أمـــر مطلوب مرغوب فيه، وقـــد جاءت الأحاديث مقررة لذلك داعية إليه.

- ففي الحديث المتفق عليه، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (**ما أذن الله لشـــيء ما أذن لنبي حســـن الصوت بالقرآن يجهر به**).

وفي رواية للبخاري: (**ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن**).

- وعن البراء بن عـــازب قال: قال رســـول الله ﷺ: (**زينوا القـــرآن بأصواتكـــم**) رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

- وعنه قال: ســـمعت رســـول الله ﷺ قرأ في العشاء بالتين والزيتون، فما سمعت أحسن صوتاً منه، متفق عليه.



- وعن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن عبد الله بن قيس ـ أو الأشعري ـ أُعطي مزماراً من مزامير آل داود**) رواه مسلم.
- وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن، الذي إذا سمعتموه يقرأ، حسبتموه يخشى الله**) رواه ابن ماجه.

إن تحسين الصوت بالقرآن أمر مطلوب.

وهذا يؤكد ما سبق في الفقرة السابقة من ترتيل الآيات، فتحسين الصوت لا يتأتى مع سرعة القراءة.





مقدار القراءة

كانت صلة النبي ﷺ وثيقة بالقرآن الكريم، فبالإضافة إلى القراءة في الصلوات، كان يقرأ كل يوم قدراً معيناً من القرآن الكريم، ففي حديث أوس بن حذيفة، وهو واحد من وفد ثقيف: أنه ﷺ كان يأتي إليهم كلَّ يوم، وتأخَّر في يوم فسئل عن سبب ذلك فقال: (**إنه طرأ عليَّ حزبي من القرآن، فكرهتُ أن أخرج حتى أتمَّه**) رواه أبو داود وابن ماجه.

والمعنى أنه طرأ عليه ﷺ ما منعه عن القراءة في الوقت الذي خصَّصه لذلك، فقرأه بعد ذلك فكان سبباً لتأخره.

وقد فعل الصحابة كما فعل ﷺ فكان لكلٍّ منهم حزبه الذي خصصه لنفسه، والتزم بقراءته كل يوم، حتى كان ذلك حديثاً متداولاً بينهم.



فقد التقى معاذ وأبو موســى، فقال معاذ: يا عبد الله، كيف تقرأ القرآن؟ قال: أتفوقه تفوُّقاً ـ أي: ألازم قراءته ليلاً ونهاراً شيئاً بعد شيء وحيناً بعد حين ـ فقال أبو موسى: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل، فأقوم فأقرأ ما كتب الله لي. رواه البخاري.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **(من نام عن حزبه أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كُتب له كأنما قرأه من الليل)** رواه مسلم.

والحديث يؤكِّد أنَّ الالتزام بحزبٍ من القرآن كلَّ يوم كان أمراً معمولاً به من كلِّ الصحابة بدلالة عموم الخطاب في هذا الحديث، وأن موعد قراءته كان ليلاً قبل النوم يختم المسلم به يومه..

وليس بين أيدينا نصٌّ يحدِّد مقدار هذه القراءة، وإنما هو أمر متروك للمسلم، فهو الذي يحدد هذا المقدار وفقاً لقدرته ونشاطه، يدلُّنا على ذلك ما جاء عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في قصته المشهورة.

قال عبد الله: أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كنَّته فيسألها عن بعلها، فتقول: نِعْمَ الرجل من رجل

لم يطأ لنا فراشاً، ولم يفتِّش لنا كنفاً منذ أتيناه، فلما طال ذلك عليه، ذكر للنبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: (**القني به**) فلقيتُه بعد، فقال: (**كيف تصوم؟**) رواه البخاري.

وفي هذه القصَّة ناقش الرسول ﷺ عبد الله في صيامه الذي يتطوَّع به، وكذلك في أمر صلاتــه من الليل، وفي مقدار قراءته للقرآن.

وأخرج الترمذي وأبــو داود أن كان من حديثه ﷺ أن قال له: (**اقرأ القرآن في أربعين يوماً**) ، وفي رواية البخاري ومســلم: فقال عبد الله: إني أطيق أفضل من ذلك، فقال: (**اقرأ القرآن في شهر**).

وكأني به ﷺ عندما بدأ معه من (الأربعين يوماً) إنما فعل ذلك ليلبي طموحه ورغبته في الإكثار من القراءة بعد ما عرف من قصته، وحبه للعكوف على العبادة، وإلا فمن الممكن أن تكون قراءة القرآن في ســتين يوماً أو أقل أو أكثر.

وخلاصة القول: إنَّ المسلم مطلوب منه أن يكون على صلة يوميــة بالقرآن الكريــم، ومقدار القــراءة متروك له تحديده، وإن كان من المستحسن أن يكون في أربعين يوماً أو في شهر كما ورد في الأحاديث الشريفة.



وما ذاك إلا ليكون على صلة دائمة بتشريعه الذي أنزله الله له، ولا يطول عليه الأمد فينســـاه.. فاســـتمرار التكرار يجعل للتشـــريع حضوراً دائماً في الذهن.. فيظل الضابط للأعمال قائماً.





٥ التدبُّر والعمل

وإذا كانت تلاوة القرآن أمراً مطلوباً في كلِّ يوم ـ كما رأينا ـ فيحسن بنا أن نذهب إلى السلف الصالح لنتعلَّم منهم كيف كانوا يقرؤون القرآن، وما هي نصائحهم في هذا الموضوع.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إنَّ هذه القلوب أوعية؛ فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره[١].

وقال عثمان رضي الله عنه: إني لأكره أن يأتي عليَّ يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله، يعني المصحف[٢].

وقال أبو أمامة رضي الله عنه: اقرؤوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة، فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء للقرآن[٣].

---

(١) الزهد، للإمام أحمد، ص (٢٠١).

(٢) المصدر السابق، ص (١٥٩).

(٣) المصدر السابق، ص (٢٥٣)، ومعنى المعلقة: المكتوبة.



وقال عمر ﵁: اقرؤوا القــرآن تُعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله[١].

وقال رجل لأبي بن كعب ﵁: أوصني؟

فقال: اتخذ كتاب الله إماماً، وارضَ به قاضياً وحكماً، فإنه الذي استخلف فيكم رسولكم، شفيع مطاع، وشاهد لا يتهم، فيه ذكركم وذكر من قبلكـــم، وحكم ما بينكم، وخبركم وخبر ما بعدكم[٢].

وإذا كـــانت هـــذه الأقـوال تحثُّ علـــى الصلـــة بالقـــرآن الكريم وتلاوتـــه؛ فإن المقصود مـــن التلاوة العمـــل، وهذا ما فهمـــه الصحابـــة ﵃ والتابعون لهم بإحسان.

جاء في المسند عن عطاء، عن أبي عبد الرحمن قال: حدثنا مـــن كان يقرئنا من أصحاب النبـــي ﷺ أنهم كانوا يقترئون من رســـول الله ﷺ عشـــر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل.

---

(١) البيان والتبيين، للجاحظ (٧٠/٢).

(٢) حلية الأولياء (٢٥٣/١).



وقال عبد الله بن مسعود ﵁: أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذتم دراسته عملاً، وسيأتي قوم يثقفونه مثل القناة، ليسوا بخياركم[١].

وقال الحسن البصري:

قال الله ﷿: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وما تدبُّر آياته إلا اتباعه، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنَّ أحدهم ليقول: قد قرأتُ القرآن كلَّه، فما أسقطتُ حرفاً احداً، وقد ـ والله ـ أسقطه كلَّه، ما يُرى له القرآن في خلق ولا عمل[٢].

وقال الحسن أيضاً: حملة القرآن ثلاثة نفر:

١ ـ رجل اتخذه بضاعة، ينقله من مصر إلى مصر، يطلب به ما عند الناس.

٢ ـ ورجل حفظ حروفه وضيّع حدوده، واستدرَّ به الولاةَ واستطال به على أهل بلده، وقد كثر هذا الضرب من حملة القرآن، لا كثَّرهم الله ﷿.

---

(١) إحياء علوم الدين (١/٨٥).

(٢) البداية والنهاية (٩/٢٧٠).



٣ ـ ورجل قرأ القرآن، فوضع دواءه على داء قلبه، فسهر ليله، وهملتْ عيناه، تسربل الخشوع، وارتدى الوقار، واستشعر الحزن.. والله لهذا الضرب من حملة القرآن أقلُّ من الكبريت الأحمر، بهم يسقي الله الغيث، وينزل النصر، ويدفع البلاء[1].

وقال الحارث المحاسبي:

إخواني! إذا تلا الناس كتاب الله لفضل ثوابه، ألا فأريدوا بتلاوتكم التدبُّر والاعتبار بأمثاله وعجائبه، ووعده ووعيده، وأمره ونهيه، وحرامه وحلاله، والعمل بحدوده وفرائضه، فإن ذلك أبلغ في رضوان الله تعالى.

يا قوم! إنكم ما عملتم بحدود القرآن، وصلتم إلى أجزل الثواب، وأعلى المنازل عند الله، وإن ضيَّعتم حدوده، وتلوتموه للثواب، خشيتُ أن يفوتكم الثواب بحدوده، فكم تالٍ له يتبرأ القرآن منه غداً.. أعاذنا الله وإياكم من ذلك[2].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلى الصباح،

---

(١) العقد الفريد (٢/٨٩).

(٢) الوصايا، للمحاسبي، ص (١٠٧).

وقد أنزل الله القــرآن ليتدبر ويتفكر فيــه، ويعمل به، لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه[١].

نخلص مما سبق:

إلى أن السلف مجمعون على أن المطلوب في تلاوة القرآن أن تكون بتدبُّر وإمعان فكر، وهو الأمر الذي يؤدِّي إلى العمل.

والعمل هنا نوعان:

الأول: أن يعمل بمـــا يقرأ: وفي ذلك يقول ابن القيم: التلاوة الحقيقية هي تلاوة المعنى واتباعه، تصديقاً بخبره، وائتماراً بأمره، وانتهاء عن نهيه، وائتماماً به، حيث ما قادك انقدت معه[٢].

الثاني: التأكد من الأعمال التي قام بها أنها مطابقة لما أمر به القرآن الكريم: فإن لم تكن كذلك ووجد خللاً فيما عمل، استفاد من التلاوة العودة إلى ذلك العمل وتصحيحه.

إنهما أمــران ـ تثمرهما تلاوة القــرآن ـ: الحثّ على العمل ابتداءً، والرقابة على العمل بعد ذلك.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/٥٥٤).

(٢) المصدر السابق (١/٢٠٢).

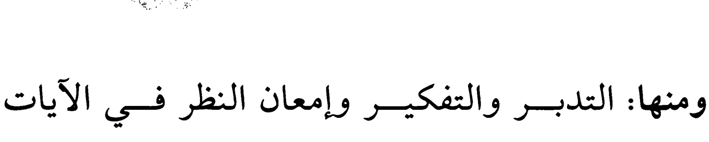


٦ التلاوةُ المثمرةُ

إنَّ تحقيق هذه الرقابة من القرآن الكريم على العمل لا تكون إلا إذا كانت «التلاوةُ» مثمرةً، وهي التي تكون لها آثارها الملموسة في واقع الإنسان، وواقع الناس، وهي التي تتوفَّر فيها مواصفات القبول، والتي سبق ذكر بعضها:

ومنها: الصلة الدائمة بالقرآن الكريم بحيث يكون له في كلِّ يوم جلسة مع كتاب الله تعالى، كما قال عثمان رضي الله عنه: إني لأكره أن يأتي عليَّ يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله.

وهذا إنما يتوفَّر إذا ألزم المسلم نفسه بهذه الصلة بغضِّ النظر عن المقدار المتلو كل يوم، كما سبق الحديث عن ذلك، فله أن يقرأ القرآن في شهر أو في شهرين أو أكثر من ذلك، والمهم عدم الانقطاع.. وإذا حصل ذلك بعامل الضرورة استدرك قسط ذلك اليوم في اليوم الذي يليه.



ومنها: التدبر والتفكير وإمعان النظر في الآيات المتلوة، فإنما ـ هي رسائل ـ كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ من الله تعالى إلى عباده.

وكلٌّ منا يعلم كيف يقرأ الرسالة إذا أتتْه ممن يحبُّ، فربما كرر النظر فيها مرات ومرات يستبطن ما وراء الأحرف من معانٍ.

فإذا كانت هذه الرسالة من خالقه ورازقه؛ فكيف ينبغي أن تكون هذه القراءة؟!

ومنها: جمع القلب والحضور الذهني والقلبي والروحي عند التلاوة.

قال ابن القيم: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب، حاضر غير غائب، قال ابن قتيبة: استمعَ كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساهٍ»(١).

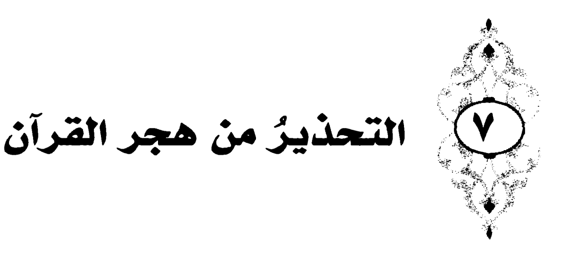
---

(١) الفوائد، لابن القيم، ص (٥ ـ ٦).



ذلك بعض ما ينبغي من أجل تلاوة مثمرة، وفي مقدمة ذلك استشعار القارئ قداسة الكلام الذي يقرؤه، وأنه كلام الله تعالى، وأنه المخاطب به.





٧ التحذيرُ من هجر القرآن

وعندما لا تتوفر هذه المواصفات، فإنَّ المسلم ربما وقع في دائرة هجر القرآن، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠].

والآية الكريمة وإن كانت في حق الكافرين الذين رفضوا الاستماع لكلام الله تعالى، فإن بعض معناها يقع على بعض المسلمين.

إن بعض المسلمين لا يقرؤون القرآن إلا في شهر رمضان؛ أليس هذا من الهجر؟!

وقد يكون الهجر في صور أخرى:

«**منها**: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

ومنها: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.



ومنها: هجر تحكيمه والتحاكـــم إليه في أصول الدين وفروعه.

ومنها: هجر تفهُّمه وتدبُّره ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

ومنها: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها.

فكل هذا داخل فــي الآية الكريمـــة، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض»[1].

وقد ظهرت أنواع من الهجر هي أشد خطراً مما سبق ذكره..

فقد وجد بين المســلمين من يصلِّي ويصوم، ويعتقد أن الأنظمــة والقوانيــن التي يســنُّها الناس أفضل من شــريعة الإسلام!.. وينضم إلى المطالبين بإبعاد الإسلام عن الحكم!..

أليس هذا من الهجر؟!

ووجــد بين المســلمين، من يظاهــر أعداءهم عليهم والقــرآن الكريــم يقــول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

(١) الفوائد، لابن القيم، ص (١٥٦).

أليس هذا من الهجر؟!

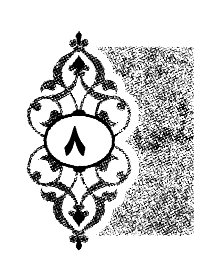
ووجد بين المسلمين من يستهزئ بالإسلام، ويعدُّ نفسه من المسلمين..

أليس هذا من الهجر؟! بلى وسببه الهجر.

نعوذ بالله من الخذلان.

إن البعد عن كتاب الله تعالى والانقطاع عنه يؤدي إلى مثل هذه الحالات التي تحاكي المناسبة التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].





أدب استماع القرآن

قال الله تعالـــى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

إن الآية الكريمة توجه إلى السـلوك الذي ينبغي على مستمع القرآن أن يفعله، وهو «الاستماع والإنصات» وعدم الكلام واللغو... فإذا فعل ذلك كان محلاً للرحمة من الله تعالى.

وقد ذهب بعض المفسـرين إلى أن هـذا الإنصات المطلـوب هو فـي الصلاة إذا قـرأ الإمام فـي الصلاة الجهرية.

وليس في النصِّ ولا أسباب النزول ما يخصص الآية بالصـلاة، بل هي عامـة، والعبـرة بعمـوم اللفظ لا بخصوص السـبب، وقد جاء في السُّـنَّة مـا يؤيد هذا العموم.



وهل يتصور إذا كان الناس في لغو وكلام وهرج ومرج أثناء قراءة قارئ القــرآن الكريم أن يكونــوا محلاً لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؟!

إنه ليس من الأدب إذا كنت في مجلس وأحدهم يتكلم أن تنصرف عن الاستماع له فكيف إذا كان كلام الله تعالى هو المتلو؟!

وقد استمع رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن مسعود.

ففي الحديث المتفق عليه، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رســول الله ﷺ: (**اقرأ علــيَّ**) قال: قلــت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (**فإني أحبُ أن أسمعه من غيري**) قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النســاء: ٤١] قال لي (**حسبك الآن**) فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان.

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي موسى الأشعري: (**لو رأيتني وأنا اســتمع لقراءتك البارحة، لقد أُوتيت مزماراً من مزامير آل داود**).

وفي السُنن الكبرى للبيهقي: عن أبي سلمة قال: كان عمر رضي الله عنه إذا جلس عند أبي موسى قال: ذكِّر يا أبا موسى، فيقرأ.



وإذا كانت الغاية من القراءة هي التدبر والفهم ثم العمل، فإن هذا يحصل من الاستماع بل ربما وفي بعض الأحيان قد يكون المستمع أكثر تدبراً من القارئ.

وفي المسند: عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (**من استمع إلى آية من كتاب الله عز وجل كتب له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة**).

وفي سُنن الدارمي عن ابن عباس قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نوراً».

إن الاستماع إلى كلام الله تعالى هو قرين القراءة والله أعلم.



٩ الأدب مع القرآن

إن الصلة بالقرآن أمر واجب على كلِّ مسلم؛ بحيث لا يدخل في عداد الذين هجروا القرآن، وأن يكون في صلته هذه مستشعراً عظمة هذا الكتاب وقداسته، فيتعامل معه بالأدب، ويقرؤه بأدب يتناسب مع مكانته.

ويحسن أن نذكِّر ببعض هذه الآداب في كل من الأمرين:

- **أما الأدب مع القرآن الكريم:** فيبدأ من إدراك المسلم أن هذا الكتاب يختلف عن كل الكتب الأخرى؛ فهو كلام ربِّ العالمين، الذي نزل به جبريل الأمين، على قلب سيد المرسلين، ولهذا فينبغي أن يكون التعامل معه في غاية من الأدب والاحترام.

وقد نصَّ القرآن الكريم نفسه على أول هذه الآداب بقوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩].



وجاءت السُّنَّة المطهرة لتقول: (**ولا يمس القرآن إلا طاهر**) فعلى المسلم إذا أراد الإمساك بالقرآن... أن يكون على طهارة كاملة... أي: أن يكون متوضِّئاً.

وقد تحدَّث الفقهاء عن آداب أخرى:

منها: أن يكون المكان الذي يوضع فيه المصحف مكاناً مكرماً محترماً، مرتفعاً عن الأرض.

ومنها: أنه إذا كان بين مجموعة من الكتب، فلا يوضع كتاب فوقه، بل يكون المصحف فوق غيره، وهو الأعلى.

ومنها: أنه إذا كان في جهة من البيت، فلا ينبغي أن تبسط الأرجل في اتجاهه، وإذا كان في غرفة النوم فليكن على الجهة اليمنى أو اليسرى للنائم أو في جهة رأسه، ولا يكون في الجهة التي تمتد إليها الأرجل.

ويدخل في هذا المعنى: أنه قد حدثت ظاهرة جديدة في المساجد، وهي وضع مكتبات خشبية منخفضة قريبة من الأرض لتكون قريبة من يد الجالس في المسجد، توضع عليها المصاحف، فيأتي بعض من لم يتعلم الأدب مع القرآن فيجلس الواحد منهم ويمد رجليه، وتصبح المسافة بين قدميه والمصحف الذي أمامه لا تتجاوز «القدم» أو أكثر قليلاً! وهذا من سوء الأدب.



إنني لا أستطيع أن أذكر كلَّ الحالات التي يكون الأدب فيها مع القرآن متوفِّراً، ولكني أقول: هي قضية تقوم في نفس المسلم تجعله حسن التصرف مع الكتاب الكريم في كلِّ حالة بالشكل الذي يتناسب معها... وأن نربِّي أولادنا على ذلك.

- **وأما الأدب عند تلاوة القرآن:** فقد سبق ذكر جملة من ذلك، ويحسن بنا أن نضع بين الأيدي جملة ما ينبغي على سبيل الاختصار:

١ ـ أن تكون جلسة القارئ مؤدَّبة تتناسب مع مقام المناجاة، فقارئ القرآن مناجٍ لله تعالى بكلامه، ولعل أفضل ذلك تلك الجلسة التي جلسها جبريل عليه السلام بين يدي الرسول ﷺ عندما سأله عن الإسلام.. وهي كالجلسة بين السجدتين في الصلاة.

٢ ـ أن يكون القارئ على وضوء، حتى ولو كان يقرأ من حفظه وليس القرآن بين يديه.

٣ ـ استقبال القبلة في جلسته إذا أمكن.

٤ ـ طهارة المكان الذي يجلس فيه القارئ.



٥ ـ استحضار عظمة الكلام الذي يتلوه، وعظمة المتكلم سبحانه، وليشعر أنه المخاطب بذلك.. فالمقصود العمل..

٦ ـ الاستعاذة عند البدء، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

٧ ـ حضور الذهن وتدبُّر الآيات ومحاولة فهم المعنى، وقد يسَّر الله ذلك لمن قصده.

٨ ـ الخشوع أثناء التلاوة.

٩ ـ ترتيل الآيات، والجهر بها، وتحسين الصوت بالقراءة.. وكلٌّ ذلك ورد الأمر به في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

١٠ ـ الإمساك عن القراءة عند التثاؤب.

١١ ـ عدم قطع القراءة إلا لحاجة.

١٢ ـ أن يقف على آية الوعد فيسأل الله ﷻ، ويقف على آية الوعيد فيستعيذ بالله سبحانه.

١٣ ـ إذا كان في المكان عدد من القرَّاء، فلا يجهر بعضهم فيشوش على الآخرين، بل تكون القراءة بحيث يسمع نفسه.

١٤ ـ ألا تكون القراءة في الأسواق وأماكن اللغط.. حيث لا يتوفر التقدير والاحترام للقراءة والقارئ.

❀ ❀ ❀



١٠ الخلاصة

كانت تلك جولة مقتضبة عن كتاب الله تعالى؛ لبيان أنه مصدر المعلومات عن هذا الدين الحنيف.

وبعد:

فمن أراد أن يعرف وحدانية الربِّ تعالى وأسماءه وصفاته؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد أن يعرف الدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد أن يعرف الإسلام والإيمان والإحسان؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومـــن أراد أن يعرف النبيَّ محمـــداً ﷺ[١]؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد إجابةً على أسئلته بشأن عالم الغيب؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد أن يعرف مكانة العقل في هذا الدين؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد أن يعرف كيف يزكي نفســـه؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد أن يتعلَّم الإخلاص في أعماله؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن.. ومن..

إنه كتاب الله تعالى الذي وصفه رسول الله ﷺ فقال:

(كتاب الله: فيه نبأ ما كان قبلكـــم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل.

---

(١) اقرأ ـ إن رغبت وعلى ســـبيل المثال ـ قصة غزوة بدر في سورة الأنفال، وقصة غـــزوة أحد في ســـورة آل عمـــران، وقصة غزوة الخندق في ســـورة الأحزاب، وســـورة التوبة، وســـورة محمد، وسورة الفتح، وسورة وســـورة... فسيرته ﷺ يسجِّلها القرآن حتى في أدق تفاصيلها في بعض الأحيان.



من تركه من جبار قصمه الله، ومـــن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم.

هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألســـنة، ولا يشـــبع منه العلمـــاء، ولا يَخْلَق على كثـــرة الردِّ، ولا تنقضي عجائبه..

هو الذي لم تنتهِ الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١، ٢].

من قال به صدق، ومن عمل بـــه أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم) رواه الترمذي والدارمي .

❀ ❀ ❀

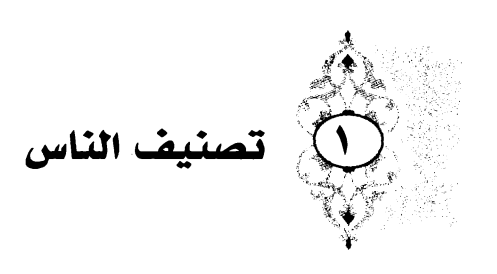


الفصل الثاني

رسائل قرآنية

«إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها في النهار»

الحسن البصري



١ تصنيف الناس

قال الله تعالى:

﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۞ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦ ـ ٧].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۞ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۞ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ۞ أَلَآ إِنَّهُمۡ



هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۞ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۞ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ٨ ـ ١٦].

❀ ❀ ❀

في هذه الآيات الكريمة رسائل.

- **الأولى**: وفيها تصنيف الناس.

فقد صنفت هذه الآيات الكريمة الناس في مجتمع المدينة، بل وفي العالم كله إلى ثلاث فئات.

ـ **الأولى**: جماعة المؤمنين الذين هم أتباع الكتاب الذي لا ريب فيه والذي فيه هدى للمتقين، وهؤلاء هم الذين على هدى من ربهم وهم المفلحون.

ـ **الثانية**: جماعة الكافرين، والكفر عنوان لجماعات متعددة المذاهب.فمنهم: الكافر الذي لا يؤمن بإلّه، ومنهم

المشرك الذي جعل مع الله آلهة أخرى، ومنهم أهل الكتاب الذي حرفوا أديانهم وبدلوا وغيّـروا، وقد جعلهم الله في عداد الكافرين فقال: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البيّنة: ١].

فجماعة الكافرين هي علــى النقيض من الجماعة الأولى ـ جماعــة المؤمنيــن ـ فماذا بعــد الحق إلا الضلال.

ـ **الثالثة:** جماعة المنافقين، وهذه الجماعة في ظاهرها تتجمل بصفات جماعة المؤمنين وفي باطنها هي من الثانية جماعة الكافرين.

ولما كان لهذه الجماعة من خطر على جماعة المؤمنين أطالــت الآيات في وصفهــا حتى اتضحــت معالمها فلا يغتربها المؤمنون.

فهم يقولون آمنا، وما هم بؤمنين، وإذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شــياطينهم قالوا إنّا معكم إنما نحن مستهزئون.

فهؤلاء فــي حقيقتهم كافــرون، وإن كانــوا من أجل ظاهرهم يعاملون معاملة المسلمين.



إن غايـــة الرســـالة الأولى هي هذا المســـح الشـــامل لأصناف الناس، حتى تعرف الدولة المســـلمة كيف تدير شـــؤونها، وحتى يعرف الأفراد المســـلمون الواقع الذي يعيشون فيه فيحسنون التعامل وأخذ الحيطة والحذر.

- **الرسالة الثانية**: وفيها بيان الأساس الذي قام عليه هذا التصنيف.

واضح مما سبق أن هذا التصنيف للناس لم يقم على أســـاس جغرافي، بحيث يُتْبِعُ الناسَ وفقاً لأماكن سكنهم وإقامتهم، كما لم يقم على العرق واللون، وإنما قام على الدين والمعتقد، فهوية المسلم عقيدته في أي مكان كان، وأيا كان لونـــه وعرقه، وعلى هذا فالمؤمنـــون إخوة أينما كانوا وأياً كانوا، بعضهم لبعض نَصَحَة..

وعلى هذا نشأت الجماعة المسلمة، وعلى هذا ينبغي أن تستمر.

- **الرسالة الثالثة**: وهي موجهة إلى الناس جميعاً.

فإن هذه الآيات الكريمة بعد أن بيَّنت أصناف الناس، دعت النـــاس جميعاً إلـــى أن يكونوا من الفئـــة الأولى، ونادتهم كافة أن يفيئوا إلـــى عبادة الله الواحد فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

- **الرسالة الرابعة:** وهي موجهة إلى الفئة الأولى المؤمنة، خلاصتها أن حمل اسم الإيمان أو الإسلام له متطلبات لا بد من العمل على تحقيقها، وهي نوعان:

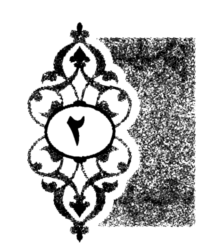
ـ عمل قلبي: يتمثل بالإيمان بالغيب والإيمان بالقرآن والكتب المنزلة الأخرى السابقة، والإيمان باليوم الآخر..

ـ وعمل جسمي: ومنه إقامة الصلاة، والإنفاق من المال..

فمن توفرت عنده أركان الإيمان، وأركان الإسلام فأولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون.

وهذا ما أكدت عليه الآيات المتكررة من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

❀ ❀ ❀



الإنفاق في سبيل الله

قال الله تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۞ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١، ٢٦٢].

سبحان الله، ما أعظم هذا العطاء، الذي لا يصدر مثله إلا عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو وحده الذي خزائنه لا تنفد.

حبة واحدة تنتج سبعمائة حبة، هذا هو الحد الأدنى، ثم يضاعف الله ذلك لمن يشاء.

إن من يسمع هذه الآية ثم يتوانى عن الإنفاق في سبيل الله تعالى وهو قادر عليه إنه مقصر في حق نفسه، التي هي بحاجة إلى مثل هذا الأجر العظيم والعطاء السخي.

بل إن هذه الآية الكريمة لتجعل القادر على الإنفاق بحاجة إلى الفقير ـ المنْفَقِ عليه ـ لا لِيَسُدَّ حاجته، بل ليحصِّل هذا الأجر العظيم.

إن كلاً من الطرفين بحاجة إلى الآخر، ولكن حاجة المنفق أكبر.

وتشترط هذه الآية الكريمة أن يكون الإنفاق في سبيل الله تعالى خالصاً له ابتغاء مرضاته.

وتوضح الآية الثانية ذلك بقولها: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ فالمن والأذي يبطلان كونها في سبيل الله.

«فالمنُّ عنصر كريه، وشعور خسيس، فالنفس البشرية لا تمن بما أعطت إلا رغبة في الاستعلاء الكاذب أو رغبة في لفت أنظار الناس، فالتوجه بالعطاء إذن للناس لا لله.

والمن ـ بعد ذلك ـ يجعل الصدقة أذى للواهب وللآخذ سواء.

أذى للواهب بما يثير في نفسه من كبر وخيلاء.

وأذى للآخذ بما يثير في نفسه من انكسار وانهزام.



إن الإسـلام لم يرد بالإنفاق مجرد سدِّ الخلة، وملء البطن، وتلافي الحاجة. كلا!

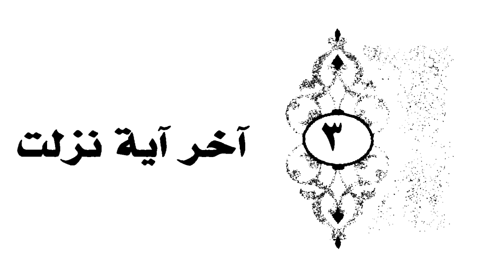
إنما أراده تهذيباً وتزكية وتطهراً لنفس المعطي، واستجاشة لمشاعره الإنسانية وارتباطه بأخيه الفقير في الله وفي الإنسانية، وتذكيراً بنعمة الله عليه..

كما أراده ترضيةً لنفس الآخذ، وتوثيقاً لصلته بأخيه في الله وفي الإنسانية، وسداً لخلة الجماعة كلها لتقوم على أساس من التكافل والتعاون»[1].

وبعد: فحري بكل قارئ لهذه الآيات أن يستقر معناها في عقله، لتتحول إلى عمل، كلَّ ما أمكن ذلك، ولا يمر عليها لمجرد كسب أجر التلاوة، ويكتفي بذلك، ويغفل عن الأجر العظيم الذي جاءت لتبشر به فاعله.



(١) الظلال.



٣ آخر آية نزلت

قال الله تعالى:

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

ترشـــد الآية الكريمة إلى تذكر اليوم الذي يرجع الناس فيه إلى الله تعالى، وهو يوم القيامة، وتطلب من المخاطبين تقديم العمل الصالح لذلك اليوم، حيث يحاسب الناس على أعمالهم صغيرها وكبيرها بالعدل إذ لا ظلم في ذلك اليوم.

وهذا المعنى الذي تذكره الآية الكريمة تكرر في القرآن الكريم كثيراً، فقضية الإيمان باليوم الآخر هي إحدى أركان الإيمان، وكثيراً مـــا يأتي ذكر الإيمان بهـــذا اليوم مقترناً بالإيمان بالله تعالى.

والإيمان باليوم الآخر هو الضابط لسلوك المسلم في حياته الدنيا، حيث يسعى لتقديم الأعمال الصالحة والبُعد



عن كل سـيئ... وما ذلك إلا لأن الإيمان قد اسـتقر في نفسه أنه محاسب على ما قدَّم، وأنه مجزي به.

والآية الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها تضيف إلى ذلك معنى آخر باعتبارها آخر آية نزلت من القرآن الكريم.

فقد نقل الإمـام ابن كثير في تفسـيره عن ابن عباس وغيره: أن آخر ما نزل من القرآن الكريم كله ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وفي بعض الروايات أن نزولها كان قبل تسع ليالٍ من وفاة النبي ﷺ.

إن آية كريمة يختم الله تعالى بها نزول كتابه لا بد أن تكون لها دلالة خاصة، فهي بمثابة الوصية الأخيرة، ودائماً تكون للوصية الأخيرة دلالتها، إنها التأكيد على أن اليوم الآخر ينبغي أن لا يغيب عن ذهن المسـلم في لحظة من حياته.

والرسـالة التي تحملها: أنه ينبغي على كل مسلم أن يجعل من هذه الآيـة، اللازمة التي يكررهـا كل يوم في حياته، يذكّر نفسـه بها، حتى تظل على الطريق المستقيم الذي أمر الله به عباده.

ورسـالة أخرى يوحي بها مكان هذه الآية في سياق الآيات التي قبلها والتي بعدها.

فقد سبقتها آيات تحريم الربا التي بدأت بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وجاءت بعدها آية الدَّينْ وهي أطول آية في القرآن الكريم.

وإذن فما قبلها وما بعدها ذو موضوع واحد، هو التعامل المادي بين الناس المتمثل في التجارة وما ينضوي تحتها من فروع.

وعلى هذا فالآية الكريمة تعني في جملة ما تعنيه التحذير من أكل أموال الناس بالباطل كأخذ الربا وما أشبهه، وتعني ضبط العلاقات المادية بين الناس بالكتابة حتى لا يضيع حق من الحقوق، لأنها محل للحساب يوم القيامة.

فعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (**أتدرون من المفلس**)؟

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

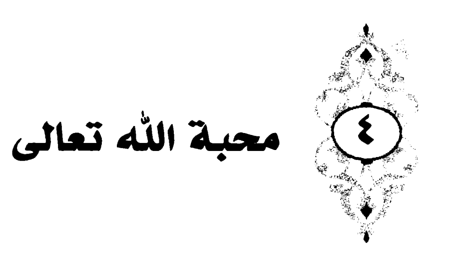
فقال: (**إن المفلس من أُمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال**



هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فَيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أُخِذَ من خطاياهــم فطرحت عليه، ثم طرح في النار) رواه مسلم.

فالرسالة الثانية التي تحملها الآية الكريمة: هي الحرص على أداء الحقوق إلى أصحابها، وهذا عمل مســتمر بين الناس، ووضــع الضوابط له أمر مفيــد. يقلل الاختلاف والنزاعات التي تنشأ بين الناس.





محبة الله تعالى

قال الله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

كثير أولئك الذين يدَّعون محبة الله، ويظنون أنها نوع من الهيام الغامض وأنها كلمات تقال باللسان، أو تُنشدُ بالألحان وقد تصاحبها الموسيقى.. ثم تكون الأعمال بغير عقال ولا ضابط.

وفي الآيتين الكريمتين رسالة تضبط هذا المعنى وتبين مستلزماته.

«إن حب الله ليس دعوى باللسان، ولا هياماً بالوجدان، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله ﷺ، والسير على هداه، وتحقيق منهجه في الحياة..



وإن الإيمان ليس كلمات تقال، ولا مشاعر تجيش ولا شعائر تقام، ولكنه طاعة الله ورسوله، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول».

قال الإمام ابن كثير في تفسير الآية الأولى:

«هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله.

كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ**) ولهذا قال: (**إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**) أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول.

قال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم بهذه الآية.

وقال في تفسير الآية الثانية:

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي تخالفوا عن أمره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فدلَّ على أن مخالفته



في الطريقة كفـــر، والله لا يحب من اتصـــف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله»[١].

والرسالة التي تسجلها الآية الكريمة: هي كما قال ابن كثير: إن دعوى محبة الله تعالى تقتضي اتباع الرسول ﷺ.

واتباع الرســـول ﷺ هو الالتزام بكل مـــا جاء به من: فرائض وواجبات ونوافل، وأخلاق وسلوك.

إنه اتباع يضفي على صاحبه صفات عباد الرحمن التي نصَّت عليها الآيات الكريمة، وآيات وصية لقمان لابنه.

وباختصار فقد كان خلق رســـول الله ﷺ القرآن، كما قالت السيدة عائشة ومن ادعى محبة الله تعالى فينبغي أن يسعى لتحقيق هذا الهدف.

وأما من ادعـــى محبـــة الله تعالى وســـلوكه وأعماله ومعاملاته تكذب ذلك فهو الأمر المخيف.

❀ ❀ ❀

---

(١) الظلال وابن كثير.



٥ حُسنُ الخاتمة

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

تطلب الآية الكريمة من كل مسلم أمرين:

- **تقوى الله حق تقاته.**
- **والموت على الإسلام.**

١) والتقوى في اللغة: بمعنى الاتّقاء، وهو اتخاذ الوقاية.

وهي: الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وصيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو تَرْكٍ.

والتقوى في الطاعة: يُراد بها الإخلاص.

وفي المعصية: يراد بها الترك والحذر.

هذا ما جاء في «تعريفات» الجرجاني.

وجاء في «الرسالة القشيرية»: التقوى جماع الخبرات، وحقيقة الاتقاء: التحرز بطاعة الله من عقوبته.

قال: وأصل التقوى: اتقاء الشـرك، ثم بعد ذلك: اتقاء المعاصي والسيئات، ثم بعد ذلك، اتقاء الشبهات، ثم بعد ذلك: ترك الفضلات.

وخلاصة هذه الأقوال: أنها فعـل الطاعات واجتناب المعاصي.

ولذلك كانت «التقوى» هي مقيـاس الكرامة عند الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقولُه تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: أن يُطاع فلا يعصى، وأن يُذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يكفر.

ومعنـى ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي كمـا ينبغي أن يتقى.. وهذا مقام عالٍ.

جاء فـي الظلال: «اتقوا الله ـ كما يحـق له أن يتقى ـ وهي هكذا بدون تحديـد، تدع القلب مجتهداً في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها».



٢) وأما قوله تعالـــى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾. فقال الإمام ابن كثير: «أي حافظوا على الإســـلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم ـ سبحانه ـ قد أجرى عادته بكرمه: أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء، بعث عليه».

وجاء في «الظلال»: «والموت غيب لا يدري الإنسان متى يدركه، فمن أراد ألا يموت إلا مســـلماً، فسبيله منذ اللحظة أن يكون مسلماً، وأن يكون في كل لحظة مسلماً».

أجل، بما أن أجل الإنسان مغيب عنه، ولا يدري متى يكون، فعليه أن يكون مســـلماً في كل وقت حتى إذا جاء أجله كان كما أراده الله أن يكون.

والذي يبدو ـ والله أعلم ـ أن الفقرتين في الآية الكريمة تؤكدان على معنى واحد وتؤديان إلى غاية واحدة.

فالالتزام بالفقرة الأولى ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ تؤدي بإذن الله تعالى إلى تحقيق الثانية، فمن اتقى الله في حياته، كما ينبغي له ـ سبحانه ـ أن يُتقى، وداوم على ذلك، فإنه عندما يأتيه أجله فسيجده مسلماً، وتكون نهايته كما طلبت منه الآية الكريمة.

والخلاصة: أن المطلوب أمران:

- استدامة التقوى في مستواها العالي.

- والموت على الإسلام.

إنها كلمات قليلة ولكنها تستغرق العمل في العمر كله من أجل تنفيذها، والموفَّق من وفَّقة الله ويسَّر له ذلك.





معالم التقوى

قال الله تعالى:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٦].

﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ هكذا بدأت هذه الآيات بكلمة تقدِّرُ «الزمن» والوقت، وتلفت النظر إلى ذلك.

والإسراع والمسارعة: إنما يكونان في إدراك شيء يُخاف فواته.



وقد تكرر هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١].

وهكذا يبرز في هاتين الآيتين الكريمتين أمران:

ـ لفت النظر إلى قيمة الزمن في قوله تعالى ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ وقوله ﴿سَابِقُوٓاْ﴾.

ـ وتحديد الغاية المراد السعي والسبق لإدراكها، وهي: المغفرة والجنة.

والذي يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن المقصود من قوله ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ هو بذل الجهد والسعي الجاد لإدراك المقصود، وعدم التباطؤ في المبادرة إلى ذلك..

ودائماً تكون المسارعة وبذل الجهد بحسب قيمة الهدف المقصود.

وإذا كان المقصود: المغفرة من الله تعالى والجنة، فإن كل جهد وكل مسارعة سيكونان دون المستوى المطلوب.

ومما يساعد على «المسارعة» اغتنام الفرص التي أرشد الرسول ﷺ إليها بقوله: (**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**).



وقـــد ختمت الآيـــة الأولـــى بقولـــه تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ وهذا يحدد هوية المسارعين والمسابقين، فإنما يسعى إلى ذلك «المتقون».

وقد سبق الحديث عن «التقوى» في شرح آية سابقة، ولكن الآيات هنا تحدد لنـــا بعضاً من معالمها بذكر أمثلة من الأعمال التي تؤدي إلى تحقيقها.

فالمتقون هم:

١ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾.

إنهم ينفقون أموالهم في سبيل الله في الشدة والرخاء، والمنشـــط والمكـــره، والصحـــة والمرض، وفـــي جميع الأحوال، فقد تحررت نفوسهم من الشِّح والحرص.

٢ ـ ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

قال ابن كثير: «أي إذا ثار بهـــم الغيظ كظموه بمعنى كتموه، فلم يُعملوه، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم».

وكظم الغيظ هـــو المرحلة الأولـــى، وهي وحدها لا تكفي، فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد.. ولذلك جاء في الآية بعد ذلك ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ وبهذا يكتمل هذا الخلق الكريم.

٣ ـ ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

إن الذين يجودون بالمال، والذين يجودون بالسماحة والعفو هم من جملة المحسنين الذين يحبهم الله تعالى.

والإحسان مقام رفيع تنضوي تحته مجمل الفضائل، والآية بهذا السياق كأنها تضيف إلى صفات المتقين التي سبق ذكرها: صفة الإحسان.

٤ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

ما زال الحديث عن المتقين..

ومن واقعية هذا الدين وسماحته أنه راعى ضعف الإنسان واحتمال وقوعه في المعصية ووقوع الذنب منه ومع ذلك فإنه لا يخرج من دائرة «المتقين» طالما أنه إذا وقع منه ذلك رجع إلى ربه تعالى فاستغفره وتاب إليه، ولم يصر على المعصية وهو يعلم أنها معصية.. إنه يعود إلى ربه الذي لا يغفر الذنوب غيره ليعلن التوبة وتصحيح المسار.

٥ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾.



إن الذين توفرت فيهم الصفات الســابقة هم المتقون، و﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ ﴾.

هكــذا: مغفــرة وجنات، كمــا جاء فــي أول الآيات ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ أي أنهــم أُعطوا ما سعوا إليه، ونِعْمَ أجر العاملين.

وبعد:

فإن هذه الآيات الكريمة تحــدد معالم «**التقوى**» التي ورد ذكرها في القرآن الكريم كثيراً.

فهي تقوم على أمرين: تحديد سلوك الإنسان تجاه الآخرين الذين يتعامل معهم، وتحديد سلوكه مع خالقه تعالى.

ـ أما ســلوكه مع الآخرين فيتمثل ـ كما جاء في الآية الكريمة ـ بأمرين:

الأول: العطــاء والبذل للآخرين في الســراء والضراء بعيداً عن المنِّ والأذى وهذا العطــاء قد يكون مالاً، وقد يكون وقتاً يبذله في مساعدة الآخرين، وقد يكون شفاعة.. إنه الإحسان..

والثانــي: تحمُّــل أذى الآخرين والصبــر على ذلك، والعفو عنهم..



واجتماع هذيـــن الأمرين في معاملـــة الآخرين يمثل الصورة المشرقة الوضيئة للتعامل الخيِّر.

ـ وأما سلوكه مع خالقه تعالى: فإنه يقوم على الطاعة والحب، وعندما يغفل أو يسهو فتصدر منه المعصية فإنه يسارع إلى ربه تعالى يسأله المغفرة والعفو، وهو متيقن أنه لا يغفر الذنوب غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والخلاصة:

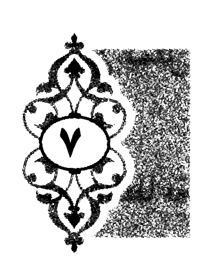
إن الرســـالة التي تحملها هذه الآيات عظيمة تصاحب الإنسان طوال حياته:

ـ فهو في جد ومسارعة إلى طلب رضوان الله ومغفرته وجنته.

ـ ومن أجل ذلك فهو يحسن إلى الناس ويتحمل أذاهم ويعفو ويسامح.

ـ ويطيع ربه تعالى، وإذا وقع منه الذنب ســـارع إلى الاستغفار والتوبة.

❀ ❀ ❀



مهمته ﷺ في التعليم والتزكية

قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

في هذه الآية الكريمة بيان فضل الله ونعمته الكبرى التي امتن ومنَّ بها على المؤمنين إذ بعث فيهم سيدنا محمداً ﷺ رسولاً يهديهم إلى عبادة الله تعالى.

ومنٌّ آخر: هو أن هذا الرسول منهم ومن أنفسهم عربياً بحيث يمكن مخاطبته ومراجعته والفهم عنه.

وبعثة الرسول ﷺ هي رحمة للعالمين، وإنما خصَّ المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون ببعثته.

وقد بيّنت الآية الكريمة بعض المهمات التي أوكلت للرسول ليقوم بها ومنها:

١ ـ تلاوة آيات الله عليهم بدءاً لدعوتهم إلى دين الله تعالى.

٢ ـ فإذا آمنوا بهذا الدين بدأ بتزكيتهم وتطهير نفوسهم من أدران الجاهلية والأخلاق الفاسدة التي كانوا متلبسين بها في حال شركهم.

٣ ـ ويعلمهم القرآن والسُّنة، وينقلهم بذلك من ظلام الجهل إلى نور العلم، وقد كانوا قبل ذلك في ضلال مبين.

واذا كان الله ﷻ يمنُّ على المؤمنين ببعثه الرسول ﷺ لهم وفيهم فذلك بيان لمكانته عند الله تعالى وكرامته، فهو خاتم النبيين وإمامهم وأفضلهم.

والرسالة التي تحملها هذه الآية الكريمة أنه على كل مسلم أن يعرف من سيرة نبيّه ﷺ وسُنته ما يخرج به أن يكون في عداد الجاهلين، لأن معرفة سيرته ﷺ تجعلنا أكثر قدرة على معرفة مكانته.

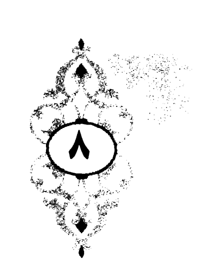
يضاف إلى ذلك:

١ ـ حمد الله تعالى وشكره على أن مَنَّ علينا بنبينا محمد ﷺ.



٢ ـ العمل على الالتزام بما جاء به ﷺ وذكرته الآية الكريمة، فنتعلّم الكتاب والحكمة ـ وهي السُّنة النبوية ـ ونعمل على تزكية أنفسنا وفقاً لما جاء به ﷺ.

❀ ❀ ❀



٨ سبيل النجاة من النار

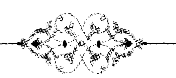
قال الله تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«يخبر الله تعالى إخبـاراً عاماً، يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت.. فهو وحده تعالى الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخر كما كان أولاً.

وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت.. فإذا انتهت البرية أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها، قليلها



وكثيرها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة ولهذا قال» ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾.

وجاء في الظلال:

«إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس: حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة، محدودة بأجل، ثم تأتي نهايتها حتماً..

يموت الصالحون ويموت الطالحون.

يموت المجاهدون ويموت القاعدون.

يموت المستعلون بالعقيدة ويموت المستذلون للعبيد.

يموت الشجعان الذين يأبون الضيم، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأي ثمن.

يمـــوت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهــداف العالية، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص.

الكل يموت... ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ .. كل نفس تذوق هذه الجرعة، وتفارق هذه الحياة.. لا فارق بين نفس ونفس في تذوق هذه الكأس الدائرة على الجميع..

إنمـــا الفارق فـــي المصيـــر الأخير ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾».

إن حقيقة الموت لا ينكرها أحد.. فهي حقيقة متيقنة لدى المؤمن والكافر ولكن كثيـراً من الناس ـ في زحمة الحياة والانشـغال بهـا ـ يغفلون عنها أو ينسـونها.. ثم يتذكرونها عندما تقع قريباً منهم.. ثم تلفهم زحمة الانشغال بالدنيا.

وفي قوله تعالـى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أن الأعمال التي كانت في الدنيا، سيجري عليها الحسـاب يوم القيامة.. ونتيجة لهذا الحساب قد يزحزح الإنسان عن النار، وقد لا تسعفه أعماله فيسقط ليستقر فيها والعياذ بالله.

وتبرز في الآية الكريمة كلمـة ﴿زُحْزِحَ﴾ لتنقل الفكر إلى ذلك المشهد الذي سيكون يوم القيامة.

جاء في الظلال، رحم الله مؤلفه:

«ولفظ ﴿زُحْزِحَ﴾ بذاته يصور معناه بجرسـه، ويرسم هيئتـه، ويلقي ظله، وكأنمـا للنار جاذبية تشـد إليها من يقترب منها، ويدخل فـي مجالها، فهو في حاجة إلى من يزحزحه قليلاً قليلاً ليخلصه من جاذبيتها المنهومة، فمن أمكـن أن يزحزح عن مجالها، ويسـتنفذ مـن جاذبيتها، ويدخل الجنة.. فقد فاز.



صورة قوية، بل مشـــهد حي، فيه حركة شد وجذب، وهو كذلك في حقيقته وفي طبيعته، فللنار جاذبية، أليست للمعصيــة جاذبيــة؟ أليســت النفس في حاجــة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبيــة المعصية؟ بلى، وهذه هي زحزحتها عن النار».

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾

وبهذه الحقيقة يأتي ختام هذه الآية الكريمة.

«إنها متاع، ولكنه ليس متاع الحقيقة، ولا متاع الصحو واليقظة.. إنها متاع الغرور، المتاع الذي يخدع الإنســان فيحسبه متاعاً، أو المتاع الذي ينشئ الغرور والخداع، فأما المتاع الحق، المتاع الذي يســتحق الجهد في تحصيله.. فهو ذاك.. هو الفوز بالجنة بعد الزحزحة عن النار».

وبعد: فإن الرسالة التي تسجلها هذه الآية الكريمة هي تذكر الحساب ويوم القيامة والموت الذي هو المدخل إلى ذلك اليوم.

وقد جــاءت الأحاديث الكثيرة التــي تدعو إلى تذكر الموت وتذكر الحياة الآخرة لما في ذلك من خير للإنسان، حيث يكبح هذا التذكر لهاثــه وراء الدنيا والانغماس في شهواتها وملذاتها.

ومن هذه الأحاديث:

- ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (**أكثروا ذكر هــاذم اللذات**) يعني: المــوت. رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه.

- وما رواه ابن مســعود رضي الله عنه عن النبــي ﷺ أنه قال: (.. **زوروا القبور فإنها تذكر الموت**) أخرجه مسلم.

وفي رواية عنه عند ابــن ماجه مرفوعاً: (**كنت نهيتكم عن زيــارة القبور فزوروها، فإنها تزهد فــي الدنيا وتذكر الآخرة**).

والأمر المطلوب العمل به: هو أن يزحزح الإنسان عن النار، فإذا تمَّ له ذلك فقد حصل الفوز.

والزحزحة عن النار والفــوز بالجنة إنما يكون بفضل الله، ولكن الله سبحانه وجهنا إلى العمل، فالأعمال الصالحة لها القسط الأكبر من زحزحة المرء عن النار.

❀ ❀ ❀



إقامة العدل

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

هذه الآية الكريمة تبيّن معالم «العدل» المطلوب إقامته في المجتمع الإسلامي.

إنه العدل «المطلق» الذي لا تتدخل به الأهواء ولا تحرفه العواطف، ولا تؤثر فيه العلاقات الاجتماعية أياً كان شأنها..

وكلمة ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ التي هي صيغة مبالغة تؤكد هذا المعنى.

فالمطلوب من القاضي أن يقضي بهذا العدل بعيداً عن النظر إلى القرابة أو الفقر والغنى.

والمطلوب من الشاهد أن يشهد بهذا العدل.

والمطلوب من كل إنسان أن يكون قوله مقرراً للعدل.

قال ابن كثير:

«يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط ـ أي بالعدل ـ فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متناصرين فيه».

وجاء في الظلال:

«إنه درس في إقامة العدل بين الناس، على النحو الفريد الذي لم يقم إلا على هذه الجماعة، العدل الذي تتعامل فيه مع الله مباشرة، متخلصة من كل عاطفة أو هوى أو مصلحة، متجردة من كل اعتبار آخر غير تقوى الله ومرضاته».

إنها رسالة لكل مسلم في أن يكون عاملاً على إقامة العدل في قوله وفي سلوكه منضبطاً مع القواعد التي ذكرتها هذه الآية الكريمة.



كمال الدين

قال الله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

كان ذلك اليوم هو يــوم عرفة من حجة الوداع، حيث كان النبي ﷺ يلقي خطبته المشــهورة، وحينها نزل قوله تعالــى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

كان هذا النزول إيذاناً بانتهاء مهمة الرسول ﷺ، وقرب موعد وفاته، وهذا ما أدركه بعض الصحابة رضي الله عنهم.

ولم تطل حياته ﷺ بعد عودته من حجته، فقد انتقل إلى الرفيق الأعلى في شهر ربيع الأول، أي بعد ثلاثة أشهر.

كانت حكمة الله بالغة، وفضلــه عميماً في نزول هذه الآيــة الكريمة في هذه المناســبة التي جمعت عشـرات

الآلاف من الصحابة حتى يشهدوا نزولها، ويسمعوا تلاوتها لأول مرة من فمه الكريم ﷺ.

فلو توفي الرسول ﷺ ولم تنزل هذه الآية، لظن بعضهم أن الدين لم يكتمل. وأن وفاته ﷺ حالت دون ذلك، ولكن الله تعالى رؤوف بعباده المؤمنين، فكان نزولها في أكبر تجمع إسلامي يومئذٍ؛ ليكون البلاغ عاماً وليطمئن المؤمنون على تمام نعمة الله عليهم.

والآية الكريمة تقرر ثلاثة أمور مرتبط بعضها ببعض:

١ ـ إكمال الله تعالى هذا الدين عقيدة وشريعة.

٢ ـ إتمام نعمته تعالى على عبادة بهذا الإكمال.

٣ ـ وأنه تعالى ارتضى لعباده الإسلام ديناً.

قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر الآية الكريمة:

«هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأُمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف..».



وجاء في «الظلال» بعد ذكر الآية الكريمة:

«ويقف المؤمن أمام هذه الكلمـات الهائلة، فلا يكاد ينتهي من استعراض ما تحمله في ثناياها من حقائق كبيرة، وتوجيهات عميقة، ومقتضيات وتكاليف.

ويقف المؤمن أولاً: أمام إعلان إكمال العقيدة، وإكمال الشريعة معاً، فهذا هو الدين، ولم يعد للمؤمن أن يتصور أن بهذا الدين ـ بمعناه هذا ـ نقصاً يستدعي الإكمال، ولا قصوراً يستدعي الإضافة، ولا محلية أو زمانية تستدعي التطوير أو التحرير.. وإلا فما هو بمؤمن، وما هو بمقر بصدق الله، وما هو بمرتضٍ ما ارتضاه الله للمؤمنين.

إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن، هي شريعة كل زمان، لأنها ـ بشهادة الله ـ شريعة الدين الذي جاء «للإنسان» في كل زمان وفي كل مكان.

والأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي.

والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان، دون أن تخرج عليه، إلا أن تخرج في إطار الإيمان.



والله الذي خلق «الإنســـان» ويعلم من خلق، هو الذي رضي له هذا الديـــن، المحتوي على هذه الشـــريعة، فلا يقول: إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم، إلا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم من الله بحاجات الإنسان وبأطوار الإنسان.

ويقف المؤمن ثانياً: أمام إتمام نعمة الله على المؤمنين، بإكمال هذا الدين، وهي النعمة التامة الضخمة الهائلة.

النعمة التي تمثل مولد «الإنســـان» في الحقيقة، كما تمثل نشأته واكتماله.

«فالإنسان» لا وجود له قبل أن يعرف إلهه، كما يعرّفه هذا الدين له، وقبل أن يعرف نفسه ودوره في هذا الوجود وكرامته على ربه، كما يعرف ذلك كله من دينه الذي رضيه له ربه.

و«الإنسان» لا وجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد بعبادة الله وحده، وقبل أن ينال المساواة الحقيقية بأن تكون شـــريعته من صنع الله وبســـلطانه، لا من صنـــع أحد ولا سلطانه.

إن معرفة «الإنسان» بهذه الحقائق الكبرى، كما صورها هذا الدين، هي بدء مولد «الإنسان».



ولا يدرك حقيقة نعمــة الله في هذا الدين، ولا يقدرها قدرها من لم يعرف حقيقة الجاهلية، ومن لم يذق ويلاتها، والجاهلية في كل زمان وفــي كل مكان هي منهج الحياة الذي لم يشرعه الله تعالى.

الذي يعرف ويعاني ويلات الضلال والعمى، وويلات الحيرة والتمزق، وويلات الضياع والخواء، في معتقدات الجاهليــة وتصوراتها في كل زمان وفــي كل مكان.. هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الإيمان.

ويقف المؤمن ثالثاً: أمام ارتضاء الله الإسلام ديناً للذين آمنوا، يقف أمام رعاية الله سبحانه وعنايته بهذه الأمة، حتى ليختار دينها ويرتضيه.

إن ارتضاء الله الإســلام ديناً لهذه الأُمــة يقتضي منها ابتداءً أن تــدرك قيمة هــذا الاختيار، ثــم تحرص على الاســتقامة على هذا الدين جهد ما في الطاقة من وســع واقتدار.

وإن الذيــن عرفوا هــذا الدين ثم تركــوه أو رفضوه، واتخذوا لأنفســهم مناهج في الحياة غيــر المنهج الذي ارتضاه الله لهم لــن يتركهم الله ولن يمهلهــم أبداً، حتى يذوقوا وبال أمرهم.

وبعد:

إن من نعمة الله على الإنسان أن يكون في عداد المؤمنين المخاطبين بهذه الآية الكريمة، العاملين على التزام وتنفيذ ما تقتضيه.

وطوبى لمؤمن شمله الخطاب الإلٰهي بـ ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ﴾ و﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ و﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ﴾؛ فذلك هو التكريم الإلٰهي والعطاء الإلٰهي.

والمسلم الذي رضي لنفسه ما رضيه الله له هو الذي حكَّم هذا الدين في حياته، وصبغها بصبغته:

فأسلم عقله.

وأسلمت روحه.

وأسلمت مشاعره.

وأسلم جسمه.

وأسلمت كلماته وألفاظه.

وأسلم كل ما فيه.

وبهذا يكون قد رضي لنفسه ما رضيه الله له، واستحق أن يكون أحد المخاطبين بهذه الآية الكريم.

❀ ❀ ❀



إنَّا معكما مقاتلون

قال الله تعالى:

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

دعا موسى عليه السلام قومه إلى دخول الأرض المقدسة، فأجابه قومه بقولهم: إن فيها قوماً جبارين وإنَّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون.

وفي نهاية النقاش بين موسى وقومه كان قولهم: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾.

ولما نزلت هذه الآيات الكريمة وقرأها الصحابة الكرام، فهموا الرسالة التي تحملها فأحسنوا الاستفادة منها.

كان ذلك في غزوة بدر حين استشار النبي ﷺ أصحابه في القتال ـ بعد أن فاتته العبر ـ فتكلم أبو بكر فأحسن، ثم قال ﷺ: (**أشيروا عليَّ أيها الناس**) فقال سعد بن معاذ: كأنك تعرض بنا يا رسول الله. فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنّا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله أن يريك معنا ما تقرُّ به عينك، فسر على بركة الله.

وتكلم المقداد بن الأسود فقال: يا رسول الله، لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون، ولكنا نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون.

فسرَّ رسول الله ﷺ بذلك.

وهكذا وعى المسلمون الدرس من قصة قوم موسى، وحولوه إلى الاتجاه الإيجابي وهكذا يمكن الاستفادة من الأخطاء التي وقع فيها الآخرون.

❀ ❀ ❀



النهي عن المنكر

قال الله تعالى:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

في هذا النصِّ الكريم رسالة تحذير للمسلمين من الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل من المعصية والعدوان وعدم التناهي عن المنكرات.

«إن تاريخ بني إسرائيل في الكفر والمعصية واللعنة عريق، وإن أنبياءهم هم الذين تولوا لعنتهم وطردهم من هداية الله، فسمع الله دعاءهم وكتب السخط واللعنة على بني إسرائيل ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾.

إن المعاصي والعدوان هما بعض سبب اللعنة التي حلت بهم.

يضاف إلى ذلك: أنهم كانوا لا يتناهون عن المنكر.

إن العصيان والعدوان قد يقعان في كل مجتمع من الشريرين المفسدين المنحرفين، فالأرض لا تخلو من الشر، والمجتمع لا يخلو من الشذوذ.

ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبحا عرفاً مصطلحاً عليه، وأن يصبحا سهلاً يجترئ عليه كل من يهم به، وعندما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير في مجتمع من المجتمعات، ويصبح الجزاء على الشرِّ رادعاً وجماعياً.. وتوقع العقوبة الرادعة عليه، عندئذٍ ينزوي الشر وتنحسر دوافعه.. وعندئذٍ لا تشيع الفاحشة، ولا تصبح هي الطابع العام.

روى أبو داود عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **(إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا اتقِ الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك، ضرب الله قلوب بعضهم ببعض)** ثم قال: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ ﴾ إلى قوله: ﴿فَٰسِقُونَ ﴾.



ثم قــال: (**كلا والله لتأمرن بالمعــروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخــذن على يد الظالــم، ولتأطرنه على الحق أطراً**) رواه أبو داود.

فليس هو مجرد الأمر والنهي، ثم تنتهي المسألة، إنما هو الإصرار، والمقاطعة، والكفُّ بالقوة عن الشر والفساد والمعصية والاعتداء.

روى مسلم عــن أبي ســعيد الخــدروي قــال قال رسول الله ﷺ: (**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلســانه، فإن لم يســتطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**)».

هذا بعض ما جاء في الظلال عند الآية الكريمة.

وجاء في صحيــح الإمام البخاري: عــن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: (**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم اســتهموا على ســفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مــروا على من فوقهم، فقالوا: لــو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ مــن فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعــاً، وإن أخــذوا على أيديهم نجــوا ونجوا جميعاً**).

بهذه البلاغــة النبوية العالية، يشــرح الحديث وضع المجتمع، وقد ركب الجميع في ســفينة، وفي الســفينة طابقان: أعلى وأسفل، والماء الصالح للشرب موجود في الأعلى. فإذا أراد الذين في الأســفل الشرب اضطروا إلى الصعود إلى الأعلى والمرور على من فيه.

فقال أهل الســفل: دعونا نخرق جدار السفينة فنشرب من هذا الخرق ولا نؤذي من فوقنا بالمرور عليهم.

ومعلوم أن خرق الســفينة يؤدي إلى غرقها وغرق من فيها ومن هم في الأعلى ومن هم في الأسفل.

فهل يسع أهل الأعلى أن يسكتوا على خرق الأسفلين في نصيبهم خرقاً، بحجة أن هذا الخرق في نصيبهم؟!

وكذلك السكوت على بعض العصاة والمعتدين وعدم الأخذ على أيديهم يؤدي إلى دمار المجتمع كله.

❀ ❀ ❀



العلم الشامل

قال الله تعالى:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

إني وأنا العبد الصغير الضعيف، أول ما يشدُّ انتباهي مما ذكر في الآية الكريمة، تلك الورقة وهي تسقط من شجرتها، فهذا المشهد مألوف لي ولأمثالي، ولكن الشجرة الواحدة قد تسقط منها أوراق في أوقات متقاربة أو متباعدة، ولكن الأمر ليس أمر شجرة في بستان، ولا شجر بستان في قرية أو مدينة.. إنها أوراق كل شجرة على ظهر هذه الأرض كلها.. إنه ﷻ يعلم كل ورقة منها في زمان سقوطها ومكان استقرارها بعد سقوطها.. إنه علم الله تعالى.

إن في الآية الكريمة: «صورة لعلم الله الشامل المحيط، الذي لا يند عنه شيء في الزمان ولا في المكان، في الأرض ولا في السماء، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طباق الجو، من حي وميت ويابس ورطب..

إن الخيال البشري لينطلق وراء النصّ القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وعالم الغيب وعالم الشهود وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح، ووراء حدود هذا الكون المشهود، وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فج وواد.

ويجول الفكر في مجاهل البر وفي غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله، ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض لا يحصيها عد، وعين الله على كل ورقة تسقط، هنا وهنا وهناك، ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض، لا يند منه شيء عن علم الله المحيط.

إنها جولة تدير الرؤوس، وتذهل العقول، جولة في آماد من الزمان، وآفاق من المكان.. يعيا بتصور آمادها الخيال وهي تُرسم هكذا دقيقة كاملة شاملة في بضع كلمات.

ألا إنه الإعجاز.



وننظر إلى هذه الآية القصيرة من أي جانب فنرى هذا الإعجاز، الناطق بمصدر هذا القرآن.

ننظر إليها من ناحية موضوعها، فنجزم للوهلة الأولى: بأن هذا كلام لا يقوله بشر، فليس عليه طابع البشر.

إن الفكر البشـــري لا يرتاد هذه الآفاق.. فما اهتمام الفكر البشري بتقصي وإحصاء الورق الساقط من الشجر، في كل أنحاء الأرض؟ إن المســألة لا تخطر على بال الفكر البشري ابتداء.. إنما الورق الساقط شأن يحصيه الخالق، ويعبّر عنه الخالق.

وما اهتمام الفكر البشري بكل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض؟.. إنما هو شأن يحصيه الخالق ويعبّر عنه الخالق.

وما اهتمام الفكر البشري بهذا الإطلاق ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾...

إن أقصى ما يتجه إليه تفكير البشر هو الانتفاع بالرطب واليابس مما بيــن أيديهم، فأما التحدث عنه كدليل للعلم الشــامل، فهــذا ليــس مــن المعهود فــي اتجاه البشــر وتعبيراتهم.. إنما كل رطب وكل يابس شأن يحصيه الخالق ويعبّر عنه الخالق.

ولا يفكر البشــر أن تكون كل ورقة ساقطة، وكل حبة مخبوءة، وكل رطــب وكل يابس في كتــاب مبين، وفي

ســجل محفوظ، فما شــأنهم بهذا، وما فائدته لهم؟ وما احتفالهم بتسجيله؟ إنما الذي يحصيه ويسجله هو صاحب الملك، الذي لا يند عنه شيء في ملكه، الصغير كالكبير، والحقيــر كالجليــل، والمخبــوء كالظاهــر، والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب.

إن هذا المشهد الشامل الواســع العميق الرائع كما أنه لا يتجه إليه الفكر البشري، وكذلك لا تلحظه العين البشرية، ولا تلم به النظرة البشرية.. إنه المشهد الذي يتكشف هكذا بجملته لعلم الله وحده، المشرف على كل شيء، المحيط بكل شيء، الحافظ لكل شيء، الذي تتعلق مشيئته وقدره بكل شيء...»[1].

إنها رســالة ـ في هــذه الآية الكريمــة ـ تلفت النظر والفكر إلى عظمة علم الله تعالــى الواحد الأحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ﷻ.

ورسالة أخرى تقول للإنســان: إذا كانت حركة الورقة الســاقطة من شــجرتها هي ضمن هذا الإحصاء الدقيق، أليســت كل حركة للإنســان وكل ســكون له ضمن هذا الإحصاء؟ أليست كل حركة لعينه وكل غمزة لها ضمن هذا الإحصاء؟ إنها تذكرة وأي تذكرة...!

---

(١) من الظلال باختصار.



١٤ ذلكم وصاكم به

قال الله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمة فليقرأ

هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

تتضمن هذه الآيات الكريمة عدداً من الوصايا، تُعدُّ في مجملها قوام هذا الدين.

فالآية الأولى:

ـ تأمر بتوحيد الله وعدم الإشراك به.

ـ وتأمر بالإحسان إلى الوالدين.

ـ وعدم قتل الأولاد خوفاً من الفقر.

ـ وعدم الاقتراب من الفواحش الظاهرة والباطنة.

ـ وعدم قتل الأنفس إلا ما كان بحق كالقصاص من القاتل.

وفي الآية الثانية:

ـ الوصية بعدم المساس بمال اليتيم.

ـ والوفاء بالكيل والميزان.

ـ والعدل في القول والشهادة والحكم، ولو كان ذلك على ذوي القربى.

ـ والوفاء بالعهد.



وفي الآية الثالثة:

ـ الوصية بلزوم الصراط المستقيم، صراط الله العزيز الحميد.

ـ والوصية بعدم التفرق.

إن هذه الوصايا فيها قوام الدين كله:

إنها قوام حياة الضمير بالتوحيد.

وقوام حياة الأُسرة بأجيالها المتتابعة.

وقوام حياة المجتمع بالتكافل والطهارة فيما يجري فيه من معاملات.

وقوام حياة الإنسانية وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات مرتبطة بعهد الله.

وهذا هو صراط الله المستقيم، وكل ما عداه سبل تتفرق بالناس عن سبيله الواصل الوحيد.

إن تكرار ذكر الوصية في ختام هذه الآيات يوحي بضرورة العودة إليها وقراءتها مرة بعد مرة.. وبخاصة أن الموصي هو الله تعالى.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

إنها رسالة بل هي رسائل قد نقرؤها في دقائق، ولكن تطبيقها ينتشر حتى يغطي مساحة الحياة.

❀ ❀ ❀

١٥ المؤمنون حقاً

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

في هذه الآيات الكريمة بيان لأوصاف المؤمنين.

وأول ما يطالع القارئ لهـذه الآيات: كلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ التي تفيـد الحصر، فالأوصـاف المذكـورة في الآيات الكريمة هي التي تحقق وجـود الإيمان، ومن لم توجد لديه هذه الصفات بجملتهـا فليس من المؤمنين، ويؤكد هذا المعنى وهو الحصر ختام هذه الصفات بقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾.

وهذه الصفات المذكورة هي: خمس، ثلاثة منها تتعلق بفعل القلب، واثنتان منها تتعلق بفعل الجسم.

• **أما ما تعلق منها بالقلوب فهي:**

ـ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾. أي: خافت، وهذا الخوف مبعثه استشعار جلال الله تعالى وعظمته، واستعظام شأنه، وهو خوف مشوب بالحب والهيبة.

ـ ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾. أي: يقيناً وطمأنينة نفس، فإن سماع كلام الله تعالى يؤكد الإيمان الذي استقر في نفس المؤمن ويزيده ثباتاً وقوة.

ـ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾. قال ابن كثير: «أي لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في المُلك لا شريك له ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب».

جاء في الظلال: «وليس الاتكال على الله وحده بمانع من اتخاذ الأسباب، فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها.



ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيتكل عليها، إن الذي ينشـــئ النتائج ـ كما ينشئ الأسباب ـ هو قدر الله، ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن.

اتخاذ الســبب عبادة بالطاعة، وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليه إلا الله.

وبذلك يتحرر شــعور المؤمن من التعبد للأســباب والتعلق بها، وفــي الوقت ذاته هو يســتوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله في استيفائها».

هذا مـا يتعلق بصفـات القلـوب، وأما يتعلق بالأجسـام فهو:

ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾. قال في الظلال: «وهنا نرى للإيمان صــورة حركية ظاهــرة ـ بعدمــا رأيناه في الصفات السابقة مشاعر قلبية باطنة ـ ذلك أن الإيمان هو ما وقر فــي القلب وصدقــه العمل، فالعمل هــو الدلالة الظاهــرة للإيمان التي لا بد من ظهورها للعيان، لتشــهد بالوجود الفعلي لهذا الإيمان.

وإقامة الصلاة ليست هي مجرد أدائها، إنما هي الأداء الذي يحقق حقيقتها، الأداء الكامل اللائق بوقفة العابد في

حضرة المعبود ـ سبحانه ـ لا مجرد القراءة والقيام والركوع والسجود، والقلب غافل، وهي في صورتها الكاملة تلك تشهد للإيمان بالوجود فعلاً.

ـ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في الزكاة وغير الزكاة، وهم ينفقون «مما رزقناهم» فهو بعض مما رزقهم الرزاق.. وهو كثير لا يحصى، فإذا انفقوا فإنما ينفقون بعضه ويحتفظون ببقيته، والأصل هو رزق الله وحده.

تلك هي الصفات التي حـــدد الله بها الإيمان في هذا المقام».

وبعد: إذا كان وجود هـــذه الصفات هو مقياس وجود الإيمان، فهل يقيس النـــاس بعضهم بعضاً بهذا المقياس، وهل يحكمون بالإيمان لمن وجدت فيه؟

إن هذا المقياس وضعه الله ليقيس كل إنسان به نفسه، فيحمد الله إذا كان مستكملاً لهذه الصفات، ويتدارك نفسه باستكمال النقص إذا وجد.

إنه لا يمكـــن لأحد أن يحكـــم على أحد بمـــا يتعلق بالمشاعر والصفات القلبية، وهي الصفات الثلاث الأولى في هذا المقياس فكيف يمكنه أن يحكم على الآخرين به؟!

❀ ❀ ❀



دار السلام

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٤، ٢٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضرب الله تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها، وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض، بما أُنزِل من السماء، مما يأكل الناس من زرع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من قضب وغيره، حتى إذا أخذت الأرض زينتها الفانية بما خرج في رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال

والألوان، وظن الذين زرعوها وغرسوها أنهم قادرون على جذاذها وحصادها.

فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة ـ في ساعة من ليل أو نهار ـ فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها، بعد تلك الخضرة والنضارة، فأصبحت كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن.

كذلك يبيّن الله الحجج والأدلة لقوم يتفكرون، فيعتبرون بهذا المثل، في زوال الدنيا من أهلها سريعاً، مع اغترارهم بها وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها، ونقلتها عنهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها والطلب لمن هرب منها.

ولما ذكر الله تعالى الدنيا وسرعة زوالها، رغب في الجنة ودعا إليها وسماها، دار السلام ـ أي من الآفات والنقائص والنكبات ـ فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾» .

إن الرسالة في هذا النصِّ الكريم موجهة إلى الغافلين الذين تستغرق الدنيا أعمارهم لينالوا منها بعض المتاع ويضيعون الآخرة في سبيل ذلك.

إن الآية الكريمة تضع الحقيقة بين أيدينا وهي: أن هذه الدنيا لا أمن فيها ولا استقرار، ولا ثبات ولا اطمئنان، فقد

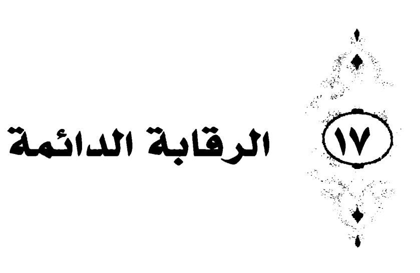


يزرع الإنسان ولا يحصد، وقد يحصد ولا يتاح له التمتع بثمرة حصاده.

وإذا كان الأمر كذلك فينبغي لكل عاقل أن يستجيب إلى دعوة الله فيعمل لآخرته التي هي دار السلام كما يعمل لدنياه، بل يكون جل اهتمامه بتلك الدار التي مآله إليها.

وهذا لا يعني أن يترك الإنســان دنيــاه لينصرف إلى آخرته، وإنما يعني أن يحسن التوازن بين الدنيا والآخرة. فيعمل لكل منهما بقدر بقائه فيهما وخير ما يوضح الطريق ويحدد هذا التوازن هو قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾.





١٧ الرقابة الدائمة

قال الله تعالى:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

جاء في الظلال: «إن الشعور بالله على النحو الذي تصوره الآية الكريمة شعور مطمئن ومخيف معاً، مؤنس ومرهب معاً.. وكيف بهذا المخلوق البشري وهو مشغول بشأن من شؤونه يحسُّ أن الله معه، شاهد أمره وحاضر شأنه، الله بكل عظمته، وبكل هيبته، وبكل جبروته، وبكل قوته، الله خالق هذا الكون وهو عليه هين، ومدبر هذا الكون ما جلَّ منه وما هان.. الله مع هذا المخلوق البشري.



إنه شعور رهيب.. ولكنه كذلك شعور مؤنس مطمئن. إن هذه الذرة التائهة ليست متروكة بلا رعاية ولا معونة ولا ولاية.. إن الله معها.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾.

إنه ليس شمول العلم وحده، ولكن شمول الرعاية، ثم شمول الرقابة.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

ويسبح الخيال مع الذرات السابحة في الأرض أو في السماء ـ ومعها علم الله ـ ومع ما هو أصغر من الذرة وأكبر محصوراً في علم الله، ويرتعش الوجدان إشفاقاً ورهبة، ويخضع القلب إجلالاً وتقوى، حتى يطامن الإيمان من الروعة والرهبة، ويهدئ القلب الواجف بأنس القرب من الله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يخبر الله نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق، في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين».

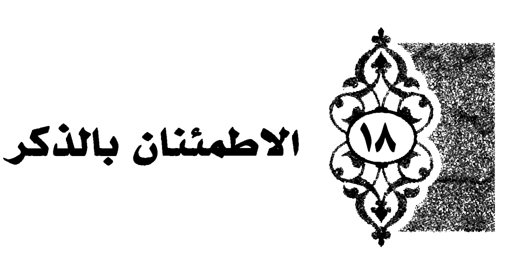
إنها رسالة خطيرة تلك التي تحملها هذه الآية الكريمة تقول لكل إنسان: إنك تحت المراقبة في كل لحظة من لحظات حياتك، فخذ حذرك، وراقب نفسك واحسب حركاتك وسكناتك.. كما جاء في الصحيح: (اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

أجل (فإنه يراك) فليستقر هذا المعنى في فكرك ولتضبط تصرفاتك وفقاً لذلك.

وأخيراً: لقد استوقفني تخصيص ذكر «تلاوة القرآن» في الآية الكريمة بين عمومين، **الأول**: قوله ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ **والثاني**: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾.

ولعل في ذلك إشارة إلى فضل هذا العمل وشرفه فخصصه بالذكر، فأي حال أفضل من وقفة بين يدي الله تعالى يُقرأ فيها القرآن، أو جلسة بين يدي كتاب الله تعالى يناجي الإنسان ربه تعالى بتلاوة كلامه سبحانه.

❀ ❀ ❀



١٨ الاطمئنان بالذكر

قال الله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

«ترسم الآية الكريمة صورة شفيفة للقلوب المؤمنة، في جو من الطمأنينة والأنس والسلام.

تطمئن بإحساسها بالصلة بالله، والأنس بجواره، والأمن في جانبه وحماه، تطمئن من قلق الوحدة وحيرة الطريق، بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير، وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء، ومن كل ضر، ومن كل شر إلا بما يشاء، مع الرضى بالابتلاء والصبر على البلاء، وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة.

﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾

ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة، يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فاتصلت بالله.

يعرفونهـــا، ولا يملكـــون بالكلمـــات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها، لأنها لا تنقل بالكلمات، إنما تســـري في القلب فيســـتروحها ويهش لهـــا، ويندى بها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام.

وليس أشـــقى على وجه هـــذه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله.

وليس أشقى ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكـــون، لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بما حوله في الله خالق الكون.

ليس أشقى ممن يعيش لا يدري لمَ جاء؟ ولمَ يذهب؟ ولمَ يعاني ما يعاني في الحياة؟

وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكـــون مرتكناً إلى الله مطمئناً إلى حمـــاه، مهما أُوتي من القوة والثبات والصلابة.. ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾»[1].

اللهم اجعل قلوبنا مطمئنة بذكرك.

---

(١) عن الظلال.



قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

«الطمأنينة: سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه.

وفي المقصود بـ «ذكر الله» في الآية الكريمة قولان:

أحدهما: أنه ذكر العبد ربه، فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن، فإذا اضطرب القلب، فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله تعالى.

والثاني: أن ذكر الله ها هنا: القرآن، وهو ذكره الذي أنزله على رسوله، به طمأنينة قلوب المؤمنين.

فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصولهما إلا من القرآن، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه، والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به، وهذا القول هو المختار»[١].

❀ ❀ ❀

(١) مدارج السالكين (٢/٥١٢).



١٩ جوامع الخير

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

هذه الآية الكريمة آية جامعة في ميدان الأخلاق فقد أمرت بكل خير، ونهت عن كل شر، وقد نقل ابن كثير عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ الآية».

وإن المفردات التي ورد ذكرها في الآية لكل منها شواهد كثيرة من آيات الذكر الحكيم، فما جاء في الآية الكريمة كله مما تكرر الحض عليه أو النهي عنه في الكتاب العزيز.



ويحسن بنا أن نقف أمام ما جاءت به الآية الكريمة:

١) أول الأشياء المأمور بها «العدل».

«العدل الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل، لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالود والبغض، ولا تتبدل مجاراة للصهر والنسب، والغنى والفقر، والقوة والضعف، إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع.

٢) وإلى جوار العدل «الإحسان».. يلطف من حدة العدل الصارم الجازم، ويدع الباب مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثاراً لودِّ القلوب، وشفاء لغل الصدور، ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه، ليداوي جرحاً أو يكسب فضلاً.

والإحسان أوسع مدلولاً، فكل عمل طيب إحسان، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل، فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه، وعلاقاته بأُسرته، وعلاقاته بالجماعة، وعلاقاته بالبشرية جميعاً.

٣) ومن الإحسان «إيتاء ذي القربى» وإنما يبرز الأمر به تعظيماً لشأنه، وتوكيداً عليه.

وما يبني هذا على عصبية الأسرة، إنما يبنيه على مبدأ التكافل الذي يتدرج به الإسلام من المحيط المحلي إلى المحيط العام، وفق نظريته التنظيمية لهذا التكافل.

٤) ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾.

والفحشاء: كل أمر يفحش، أي يتجاوز الحد، ومنه: ما خصص به غالباً وهو فاحشة الاعتداء على العرض، لأنه فعل فاحش فيه اعتداء، وفيه تجاوز للحد، حتى ليدل على الفحشاء ويختص بها.

والمنكر: كل فعل تنكره الفطرة، ومن ثم تنكره الشريعة، فهي شريعة الفطرة وقد تنحرف الفطرة أحياناً فتبقى الشريعة ثابتة تشير إلى أصل الفطرة قبل انحرافها.

والبغي: الظلم، وتجاوز الحق والعدل.

وتختم الآية بقوله: ﴿يَعِظُكُمْ﴾. أي: يأمركم بما يأمركم به من الخير، وينهاكم عمّا ينهاكم عنه من الشر ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

إنها رسالة تذكير.. مختصرة ولكنها عامة شاملة.

ولما كانت الآية عامة داعية للخير محذرة من الشر، فقد اعتاد كثير من خطباء الجمعة أن يختموا خطبهم بها.



٢٠ الهداية إلى الاستقامة

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء: ٩، ١٠].

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾.

«هكذا ـ ﴿أَقْوَمُ﴾ ـ على وجه الإطلاق فيمن يهديهم، وفيما يهديهم» فيشمل الهدى أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه: كل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

- **يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور،** بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط

بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشـــرية في تناسق واتساق.

- **ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه**، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي كلها مشـــدودوة إلى العــروة الوثقى التي لا تنفصم، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنســـان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعاً واستمتاعاً بالحياة.

- **ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة**، بالموازنة بين التكاليف والطاقة فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس مـــن الوفاء، ولا تســـهل وتترخص حتى تشـــيع في النفس الرخاوة والاســـتهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

- **ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض**، أفراداً وأزواجاً، وحكومات وشعوباً، ودولاً وأجناســـاً، ويقيم هـــذه العلاقات على الأُســـس الوطيدة الثابتة، التي لا تتأثر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشـــنآن، ولا تصرفها المصالح والأغراض.



هذه الأُسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه، وهو أعلم بمن خلق، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم، ونظام المال، ونظام الاجتماع، ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.

- **ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها**، والربط بينها كلها، وتعظيم مقدساتها، وصيانة حرماتها، فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام»[١].

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۞ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

إن هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، من جملة هدايته أنه يبشر المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالأجر الكبير، كما يتوعد الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة بالعذاب الأليم الذي ينتظرهم.

وتخصيص ذكر عدم إيمانهم بالآخرة من بين بقية أركان الإيمان، ذلك ـ والله أعلم ـ لأن الإيمان باليوم الآخر

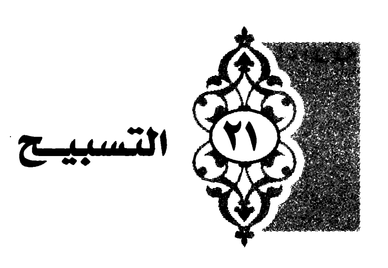
(١) الظلال.

هو الذي يصحح سلوك الإنسان في الحياة الدنيا، لأنه يؤمن أنه محاسب عليه في الآخرة.

وبعد:

فإن الرسالة المستفادة من الآيتين هي التعرف على مكانة القرآن الكريم وأن على المسلم أن يدور معه حيث دار، فينفذ أوامره، وينتهي عمّا نهى عنه، وأن تكون صلته به دائمة فيتلوه ما أُتيح له ذلك.





التسبيح

قال الله تعالى:

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى: تقدسه السماوات السبع والأرض ومن فيهن، أي من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلٰهيته».

وجاء في الظلال: «مشهد فريد، تحت عرش الله، يتوجه كله إلى الله، يسبح له ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ ... ﴾.

وهو تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتنتفض روحاً حيّةً تسبح الله، فإذا الكون كله حركة وحياة، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال.

وإنه لمشهد كوني فريد، حين يتصور القلب: كل حصاة وكل حجر، كل حبة وكل ورقة، كل زهرة وكل ثمرة، كل نبتة وكل شجرة، كل حشرة وكل زاحفة، كل حيوان وكل إنسان كل دابة على الأرض وكل سابحة في الماء والهواء... ومعها سكان السماء.. كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه.

وإن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب في كل ما حوله، مما يراه ومما لا يراه، وكلما همت يده أن تلمس شيئاً، وكلما همّت رجله أن تطأ شيئاً.. سمعه يسبح لله، وينبض بالحياة.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ يسبح بطريقته ولغته، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، لا تفقهونه لأنكم لم تسمعوا بقلوبكم.

﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

وذكر الحلم هنا والغفران بمناسبة ما يبدو من البشر من تقصير في ظل هذا الموكب الكوني المسبح بحمد الله، بينما البشر في جحود، وفيهم من يشرك بالله، ومن ينسب له البنات، ومن يغفل عن حمده وتسبيحه.

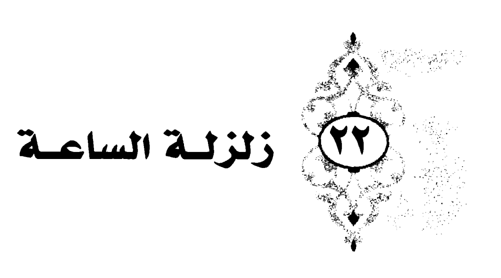


والبشر أولى من كل شـــيء، في هذا الكون بالتسبيح والتحميد والمعرفة والتوحيد، ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ الشـــر أخذ عزيز مقتدر، ولكنه يمهلهم ويذكِّرهم ويعظهم ويزجرهم إنه كان حليماً غفوراً»(١).

وأخيراً، فإن الرســالة التي تبعث بها هذه الآية، هي أنه ينبغي على كل مســلم أن يشارك في عملية التسبيح هذه، حتى لا يكون نشــازاً في هذا الوجود، وحتى لا يكون أقل من بقية الأشياء وقد قال ﷺ: **(ليكن لسانك رطباً من ذكر الله)**.



(١) الظلال.



٢٢ زلزلة الساعة

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

هذا مطلع سورة الحج يبدأ بنداءِ الناس ـ كل الناس ـ ودعوتهم إلى تقوى الله، وكأن هذه الدعوة معللة بما بعدها وهو عرض مشهد من مشاهد يوم القيامة، فالتقوى مطلوبة حتى ينجو الإنسان من هول ذلك اليوم.

وبعد هذا المطلع والنداء، تُعرض حقيقة من الحقائق التي ستكون في الدار الآخرة وهي أن زلزلزلة الساعة شيء عظيم.

إنها صورة مجملة ومع ذلـــك فهي مخيفة مرعبة، فـ«الزلزلة» شيء مرعب بحد ذاتها، فإذا كانت «زلزلة



الساعة» فهي شيء آخر غير ما تعارفه الناس في الدنيا، ويكفي لمعرفة هولها: أن يصفها الله تعالى بالشيء العظيم.

وبعد هذا الوصف المجمل، يعرض القرآن الكريم مشاهد مما يقع في ذلك اليوم، مشاهد قليلة ولكنها معبرة ومصورة لعظم ما ينتاب الناس يومئذٍ.

يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت، ولا يحدث هذا للمرضعة إلا إذا انتابها ما يغيبُ وعيها به.. وتغيب عن نفسها.

وفي هذا اليوم تضع كل ذات حمل حملها.. وهذا يكون من الهول المروع الذي يكون أمامها، بل إنها فيه.

ويصبح الناس سكارى، في حركاتهم وفي تصرفاتهم، ولكن سكرهم ليس سببه شرب المسكرات وإنما هول المشاهد التي يرونها، وما هم فيه.

إن هذه المشاهد مبعثها أمر واحد هو الذي أذهل المرضعة وجعل الحامل تضع حملها وبدا الناس سكارى وما هم بسكارى.. (ولكن عذاب الله شديد).

يعرض القرآن الكريم هذا المشهد ليأخذ الناس حذرهم ويســتعدوا لهذا الموقف وتفادي الوقوع فيما يحدث فيه، وذلك بتقوى الله سبحانه وتعالى.





٢٣ ضعف الطالب والمطلوب

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **:**

«حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه؛ وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده، وإعدام ما يضره.

والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب، ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو

أكبر منه؟ ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه، فيستنقذونه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة...!

هذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله، وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة..»[1].

وقال في الظلال:

«هذا المثل يضع قاعدة ويقرر حقيقة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾».

كل من تدعون من دون الله من آلهة مدَّعاة، من أصنام وأوثان، ومن أشخاص وقيم وأوضاع، تستنصرون بها من دون الله وتستعينون بقوتها، وتطلبون منها النصر والجاه.. كلهم لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له.

---

(١) إعلام الموقعين (٢٣٥/١).



والذباب صغير حقير، ولكن هــؤلاء الذين يدعونهم آلهة لا يقدرون ـ ولو اجتمعوا وتساندوا ـ على خلق هذا الذباب الصغير الحقير.

وخلق الذباب مســتحيل كخلق الجمل والفيل، لأنه يحتوي على ذلك السر المعجز، سر الحياة، فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل.

ولكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يلقى في الحس ظل الضعف أكثر ممــا يلقيه العجز عن خلق الجمــل والفيل! دون أن يخلّ هذا بالحقيقة في التعبير، وهذا من بدائع الأســلوب القرآني العجيب.

ثم يخطو خطوة أوسع في إبراز الضعف المزري ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾.

والآلهة المدعاة لا تملك اســتنقاذ شــيء من الذباب حين يسلبها إياه، سواء كانت أصناماً أو أوثاناً أو أشخاصاً.

وقد اختير الذباب بالذات وهو ضعيف حقير، وهو في الوقت ذاتــه يحمل أخطر الأمراض، وقد يســلب العيون والجوارح..

وهذه حقيقة أخرى كذلك يستخدمها الأسلوب القرآني المعجز، ولو قال: وإن تسلبهم السباع شيئاً لا يستنقذوه منها.. لأوحى ذلك بالقوة بدل الضعف، والسباع لا تسلب شيئاً أعظم مما يسلبه الذباب، ولكنه الأسلوب القرآني العجيب.

ويختم ذلك المثل المصور الموحي بهذا التعقيب ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ ليقرر ما ألقاه المثل من ظلال، وما أوحى به إلى المشاعر والقلوب.

وفي أنسب الظروف.. والمشاعر تفيض بالزراية والاحتقار لضعف الآلهة المدعاة، يندد بسوء تقديرهم لله. ويعرض قوة الله الحق بأنه إلٰه:

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

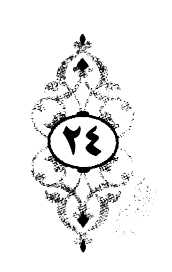
- ما قدروا الله حق قدره، وهم يشركون به تلك الآلهة الكليلة العاجزة، التي لا تخلق ذباباً ولو اجتمعت له، بل لا تستنقذ ما يسلبها الذباب إياه.

- وما قدر الله حق قدره، وهم يرون آثار قدرته، وبدائع مخلوقاته، ثم يشركون به من لا يستطيعون خلق الذباب الحقير.



- وما قدروا الله حق قدره، وهم يســـتعينون بتلك الآلهة العاجزة.. ويدَعون الله القوي العزيز..».

❀ ❀ ❀



٢٤ الذين يرثون الفردوس

قال الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١].

تجمع هذه الآيات الكريمة صفات الفلاح التي توصِل من جمعها إلى الفردوس وهو المكان الأعلى في الجنة.

وفي الآية تقرير القاعدة الأساس التي لا بد منها حتى يكون لتلك الصفات فائدتها، وهي «الإيمان» فالمؤمنون هم المفلحون إذا قاموا بتلك الأعمال التي ذكرتها الآيات الكريمة وهي:



ـ ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ أي خائفون، قال علي رضي الله عنه: الخشوع: خشوع القلب، وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح.

والخشوع في الصلاة: إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها، وحيئذٍ تكون راحة وقرّة عين.

ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴾ واللغو: هو ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال.

ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ والزكاة قد تكون زكاة النفس من الدنس، وقد تكون زكاة الأموال، والمؤمن يقوم بالأمرين معاً، فهو يعمل على تزكية نفسه، وكذلك يزكي أمواله.

ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴾ أي: الذين حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه، ولا يقربون سوى أزواجهم.

ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾ أي: إذا أُؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدون الأمانات إلى أهلها، وإذا ما عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك.

- ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ أي: يواظبون عليها في مواقيتها، قال قتادة، يحافظون على مواقيتها وركوعها وسجودها.

والملاحظ: أن الله تعالى قد افتتح ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل ذلك على أفضليتها.

تلك هي الصفات التي يفلح أصحابها ويفوزون بما وعدهم الله تعالى به، وهو الفردوس من الجنة.

والرسالة التي توجهها هذه الآيات الكريمة لمن قرأها، أن يراجع حسابه، ويتفحص أعماله، فإن كانت هذه الصفات متوفرة لديه، فليحمد الله تعالى وليستمر على ذلك.

وإذا وجد نقصاً، فليعمل على تداركه، وليستكمل النواقص حتى يكون في عداد الوارثين، الذين يرثون الفردوس، وتلك النعمة العظمى.

❀ ❀ ❀



٢٥ القلوب الوجلة

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

في هذه الآيات الكريمة ذكر بعض صفات المؤمنين الذين يسارعون في الخيرات.

ـ فهم من خشية ربهم مشفقون، فهم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون. كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمنا.

ـ وهم بآيات ربهم يؤمنون: يؤمنون بآياته الشرعية والكونية.

- وهم بربهم لا يشركون: فهم يوحدونه ويعلمون أن لا إله إلا الله.

- وهم الذين ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ أي: يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في بعض ما ينبغي أن يقوموا به.

أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه: عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر، ويسرقون؟ قال: (**لا، يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات**).

إن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ يحمل رسالة ينبغي أن يتوقف عندها كل قارئ، فهؤلاء يقومون بالعطاء وفعل الخيرات وقلوبهم وجلة ألا يتقبل منهم، وذلك أن كل عمل لله ينبغي أن يكون خالصاً له بعيداً عن الرياء وحب السمعة وما أشبه ذلك مما يفسد العمل، فهم خائفون من تقصيرهم.. ومع ذلك فهذا الخوف أهَّلهم أن يصفهم الله بأنهم (يسارعون في الخيرات).



إن الذين يقومون بالعمل الخيّر وهم خائفون ألا يتقبل منهم، وقــد توفرت فيهم الصفات الســابقة المذكورة في الآية، يبشرهم ربهم بأنهم هم المسارعون في الخيرات.

فهذا الخوف من عدم قبــول العمل صفة من الصفات الخيرة فيهم، فــكان ثوابهم: أن يصفهــم الله تعالى بأنهم المسارعون في الخيرات.

وبهذا بدأت الآية بذكر الخشية من الله وانتهت بذلك وهو وجل قلوبهم..





٢٦ عباد الرحمن

قال الله تعالى:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۞ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۞ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۞ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۞ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۞ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۞ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۞ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ۞ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟

عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٦].

ضمت هذه الآيات الكريمة مجموعة من التوجيهات والأوامر والنواهي والتحذيرات ينبغي لكل قارئ أن يقرأها بروِّية وهدوء حتى يتفهم ما جاء فيها.

والآيات واضحة المعاني لكل قارئ، لا تحتاج إلى الإطالة في الشرح أو التعليق عليها ولهذا سوف أذكرها الواحدة بعد الأخرى، مع تعليق مختصر إذا احتاج الأمر إلى ذلك.

ـ ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي: بسكينة، فليست هي مشية المتكبر المتعالي على الناس، وليس بمشية المتاوت الذي يمشي مشية المرضى وما هو بمريض.

ـ ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ أي: إذا سفه عليهم الجاهل بالقول السيئ، لم يقابلوه عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً.

ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ أي: في طاعة الله وعبادته.

ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ ومعنى «غراماً» أي ملازماً دائماً مستقراً.

فهم يخافون عذاب جهنم ويتوجهون إلى الله تعالى بالدعاء ليصرف عنهم ذلك، فهذا العذاب فيها دائم مستمر، ومن كانت جهنم مصيره فهي بئس المقر والمقام...

ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ أي: هم وسط في إنفاقهم، فليسوا بالمبذرين فيصرفون فوق الحاجة، وليسوا بالبخلاء الذي يقصرون في حق أهليهم فلا يكفونهم حاجاتهم.

ـ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾.

ـ ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾.

ـ ﴿وَلَا يَزْنُونَ ﴾.

ـ ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾.



إن الإشراك بالله وقتل النفس والزنا من الكبائر التي من فعلها فقد توعده الله بعذاب أليم في جهنم، حيث يضاعف له العذاب.. إلا من تاب.

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾.

من رحمة الله أنه فتح باب التوبة لكل مذنب، فمن أذنب يستطيع الرجوع إلى الاستقامة بالتوبة التي يصاحبها العمل الصالح.. فهؤلاء يبدل الله سيئاتهم حسنات.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه قولان.

أحدهما: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات، قال الحسن البصري: أبدلهم الله بالعمل السيء العمل الصالح وأبدلهم بالشرك إخلاصاً.

والثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذلك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار.

ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ أي: لا يحضرون مجالس الباطل ولا يجالسون أهل المعاصي ـ وليس

المقصود الشهادة بالزور، لأنه لم يقل: لا يشهدون بالزور، وإن كانت الشهادة بالزور من المعاصي.

- ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ أي: لا يحضرون الزور، وإذا مروا به مروا ولم يتوقفوا ولم يتدنسوا بتلك المجالس، فللمؤمن ما يشغله عن اللغو والهذر.

- ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ قال مقاتل: إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صماً، لم يسمعوه، وعمياناً لم يبصروه، ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به.

قال ابن كثير: قال قتادة: يقول: لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه، فهم قوم عقلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه. وقال الحسن البصري: كم من رجل يقرؤها ويخرُّ عليها أصم أعمى.

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

قال ابن كثير: يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده. قال عكرمة: لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين.



ـ ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قال ابن عباس: أئمة يقتدى بنا في الخير ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

هذا جزاء أولئك الذين اتصفوا بهذه الصفات الجميلة، إنه الغرفة وهي الجنة، يُبتدرون فيها بالتحية والإكرام والتوقير والاحترام، خالدين فيها وما أحسنها من مستقر ومقام ـ اللهم اجعلنا من أهلها، إنك نعم المسؤول.





٢٧ عاقبة التكبر والفساد

قال الله تعالى:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

جاءت هذه الآية الكريمة تعقيباً على قصة قارون ـ المعروفة ـ وقد خرج على قومه في زينته، في تعالٍ وتكبر وترفع، وفي دعوى عريضة: أن ما أتاه الله إياه إنما كان من العلم الذي عنده..

إنه تكبر في الشكل والمظهر وتكبر في القول والدعوى.

فخسف الله به وبداره الأرض.

وتقرر الآية الكريمة: أن الدار الآخرة ـ أي الجنة ـ جعلها الله لقوم تتوفر فيهم صفتان:

ـ ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلا يتكبرون في الدنيا على خلق الله، ولا يرون لأنفسهم فضيلة على غيرهم،



فالكل عباد الله، فهم المتواضعون.. فقد جاء في الصحيح قوله ﷺ: (**إنه أوحي إلـي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد**).

وقوله: ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾ توحي بأن خاطر الاستعلاء لم يقم في نفوسهم، ولم يدر في خلدهم الاعتزاز بذواتهم وبأشخاصهم، وبالتالي فإن «الإرادة» لم تحصل منهم.

ـ ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ والفساد كلمة عامة يدخل تحتها كل شر، فالمعاصي من الفساد، وأخذ مال الغير بغير حق من الفساد.. فهؤلاء الذين تتحدث عنهم الآية هم الذين يسعون في الخير ويأمرون بالمعروف ويقومون به..

ـ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يأتمرون بأوامر الله وينتهون عمّا نهي.

والآية الكريمة تحذر الإنسان المؤمن من مقاربة العلو في الأرض والفساد فإن الدار الآخرة والجنة لن تكون مقراً لمن كانت هذه صفاته وأعماله.

وفي الآية الكريمة بشارة لعامة المسلمين، فهم بل معظمهم لا يريدون العلو في الأرض، ولا يريدون الفساد، ولذلك ستكون العاقبة لهم إن شاء الله تعالى.

❀ ❀ ❀



٢٨ إنه قلب واحد

قال الله تعالى:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤].

«إنه قلب واحد.

فلا بد له من منهج واحد يسير عليه.

ولا بد له من تصور كلي واحد للحياة وللوجود يستمد منه.

ولا بد له من ميـزان واحد يزن به القيـم، ويقوِّم به الأحداث والأشياء، وإلا تمزق وتفرق ونافق والتوى، ولم يستقم على اتجاه.

ولا يملك الإنسان أن يستمد آدابه وأخلاقه من معين.

ويستمد شرائعه وقوانينه من معين آخر.

ويسـتمد أوضاعه الاجتماعية أو الاقتصادية من معين ثالث.



ويستمد فنونه وتصوراته من معين رابع.

فهذا التخليط لا يكوِّن إنساناً له قلب، إنما يكون مزقاً وأشلاءً ليس لها قوام.

وصاحب العقيدة لا يملك أن تكون له عقيدة حقاً، ثم يتجرد من مقتضياتها وقيمها الخاصة في موقف واحد من مواقف حياته كلها، صغيراً كان هذا الوقف أم كبيراً.

لا يملك أن يقول كلمة، أو يتحرك حركة، أو ينوي نية، أو يتصور تصوراً، غير محكــوم في هذا كله بعقيدته ـ إن كانت هذه العقيدة حقيقة واقعة في كيانه ـ لأن الله لم يجعل له سوى قلب واحد، يخضع لناموس واحد، ويستمد من تصور واحد، ويزن بميزان واحد.

لا يملك صاحب العقيدة أن يقول عن فعل فعله: فعلت كذا بصفتي الشخصية، وفعلت كذا بصفتي الإسلامية، كما يقــول رجال السياســة، أو رجــال الشــركات، أو رجال الجمعيات الاجتماعية أو العلمية وما إليها في هذه الأيام.

إنه شخص واحد له قلب واحد، تعمره عقيدة واحدة، وله تصور واحــد للحياة، وميزان واحــد للقيم، وتصوره المســتمد من عقيدته متلبس بكل ما يصدر عنه، في كل حالة من حالاته على السواء.

وبهذا القلب الواحد يعيش فرداً.

ويعيش في الأُسرة.

ويعيش في الجماعة.

ويعيش في الدولة.

ويعيش في العالم.

ويعيش سراً وعلانية.

ويعيش عاملاً وصاحب عمل.

ويعيش حاكماً ومحكوماً.

ويعيش في السراء والضراء.

فلا تتبدل موازينه، ولا تتبدل قيمه، ولا تتبدل تصوراته ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾.

ومن ثم فهو منهج واحد، وطريق واحد، ووحي واحد، واتجاه واحد، وهو استسلام لله وحده، فالقلب الواحد لا يعبد إلٰهين، ولا يخدم سيدين، ولا ينهج نهجين ولا يتجه اتجاهين، وما يفعل شيئاً من هذا إلا أن يتمزق ويتفرق ويتحول إلى أشلاء وركام!»[1].

❀ ❀ ❀

---

(١) الظلال.



الأسـوة الحسنـة

قال الله تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله».

والأسوة: هو القدوة.

والتأسي به ﷺ يقتضي: «اتباع الأقوال والأفعال في كل صغيرة وكبيرة في العادات وفــي العبادات، في الفروض والواجبات والمباحات، في العمل، وفي طريقة أدائه، في القول، وبالطريقــة التي أُديَ بها هذا القول، إنه التأســي بالمضمون وبالشكل.

وقد فهم الصحابة ﷺ هذا المعنــى من الآية الكريمة، فنقلوا لنا كل ما شاهدوه أو ســمعوه منه ﷺ، نقلوا الطريقة

والأسلوب.. طريقة الأكل والشرب والنوم والكلام والمشي.. وكل شيء حتى ما كان من خاصة الإنسان في شؤون بيته.

نقل الصحابة كل هذا وطبقوه تأسياً واقتداءً[١].

وهذا التأسي يحتاج إلى معرفة بسيرته ﷺ وبسُنّته، ولهذا كان على من أراد ذلك أن يدرس السيرة والسُّنة ليكون على علم بما يأتي وما يدع.

قال الإمام ابن القيم: «يجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ﷺ ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل في عداد أتباعه وشيعته وحزبه»[٢].

وقال: «على المسلم ـ أن يطالع سيرته ﷺ ومبادئه أمره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه»[٣].

---

(١) عن كتاب السيرة النبوية تربية أُمة وبناء دولة، للكاتب، نشره المكتب الإسلامي.

(٢) زاد المعاد (٦٩/١).

(٣) مدارج السالكين (٢٦٨/٣).



وصدق ابن القيم، فإن الذين عاشوا مع سيرته وسُنّته غدوا وكأنهم بعض أصحابه.

إن دراسة سيرته ﷺ ليست نافلة من النوافل، وإنما ضرورة من الضروريات لما يترتب عليها من التأسي به ﷺ.

ونحن بحاجة إلى العودة إلى الآية الكريمة نستطلع تتمتها.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ ﴾

بدأ الخطاب عاماً في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ ثم قال: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وهذا نوع من التخصيص ولعله المعنى المراد والله أعلم.

أيها المسلمون، جعل الله تعالى الرسول ﷺ أسوة وقدوة، والذين يوفقهم الله للتأسي به، هم الذين يرجون ثواب الله ورضاه، وهم الذين يرجون النجاة في اليوم الآخر فيكونون من أهل الجنة، وهم الذين يذكرون الله كثيراً بلسانهم ويذكرون الله كثيراً بقلوبهم.. وهكذا كان رسول الله ﷺ.



وهناك ترابط وثيق شديد بين جانبي الآية الكريمة.

ـ فالذين يتأسون به ﷺ هم الذين يرجون الله واليوم الآخر وذكروا الله كثيراً.

ـ وقد يكون المعنى: أن الذين يتأسون به ﷺ يجعلهم التأسي يرجون الله واليوم الآخر ويذكرون الله كثيراً.

وتحمل الآية الكريمة رسالة ـ وأي رسالة ـ التمسك بهديه ﷺ في كل الشؤون، والتطبيق لما جاء به.

والتأسي به ﷺ لا ينقضي في يوم، أو واقعة، أو شهر.. إنما هو سلوك يستمر طول الحياة.





التوبـــة

قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هـــذه الآية الكريمـــة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر.

قال: ولا يصح حمل هذه على غير توبة، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب».

والاستغفار من الذنوب شرط لحصول التوبة، فلا بد لكل مذنب من التوبة والاستغفار حتى يدخل في عداد من تشملهم هذه الآية، وذلك بدلالة:



ـ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ففعل يغفر يعني: أن هناك مستغفر.

ـ وقوله: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ ومعنى الإنابة: الرجوع. وهو: الرجوع عن الذنوب والابتعاد عنها والعودة إلى الاستقامة، ولا يكون ذلك إلا بالتوبة والاستغفار.

ونقل ابن كثير عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله:

«إن أعظم آية في كتاب الله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾.

وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾.

وإن أكثر آية في القرآن فرحاً: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾.

وإن أشد آية في كتاب الله تفويضاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾».

وبعد: فإن هذه الآية الكريمة التي فتحت الأبواب واسعة لكل من أراد الرجوع إلى الله والاستسلام له، وتقرر قبول توبته وهذا كرم لا يدانيه كرم، ولا يمكن أن يصدر إلا عن الله، وهو الأمر الذي يتناسب مع عظمته تعالى.



ويتناسب مع أسمائه الحسنى، فهو ـ سبحانه ـ الرحمن الرحيم، وهو التواب والغفار.

«إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية، كائنة ما كانت، وإنها الدعوة إلى الأوبة، دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال.. دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله... إن الله رحيم بعباده».

فللّه الحمد على رحمته عباده.





٣١ الإيمان والاستقامة

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

قال ابن كثير: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي اخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله على ما شرع الله.

وقال ابن عباس استقاموا على أداء الفرائض.

وكان الحسن البصري يقول: اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة».



فالآية الكريمة تنصُّ على أمريـــن: الإيمان بالله تعالى والاستقامة.

والاستقامة: هي السير على الطريق المستقيم الذي جاء ذكره في ســـورة الفاتحة، والذي يعني الالتزام بما أمر الله والابتعاد عمّا نهى.

والاســـتقامة: مفهوم معناها من لفظها ولا تحتاج إلى تفسير مطول.

ففي حديث الإمام مسلم: عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا، لا أسأل عنه أحداً بعدك قال: **(قل آمنت بالله فاستقم)**.

هكذا أجابه ﷺ بهاتين الكلمتين بغير شرح أو إيضاح لوضوح معناهما.

ويترتب ـ كما جاء في الآيات الكريمة ـ على الالتزام بالإيمان والاستقامة بشارة الملائكة لهم بما يسرهم.

ـ البشارة بالجنة الموعودة.

ـ ولاية الملائكة لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ـ وأن لهم في الجنة ما يشتهون وما يطلبون.

ـ وأن هذا تكريم من الله تعالى لهم.



وما أعظم هذه الأمور أن تكون مقابل ما قاموا به من الإيمان والاستقامة.

ولكن متى موعد هذه البشارة؟

وقد نقل الإمام ابن كثير في ذلك أقوالًا:

- قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم: تتنزل عليهم الملائكة عند الموت قائلين: أن لا تخافوا، أي: مما تقدمون عليه من عمل الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين فإنا نخلفكم فيه، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير.

- **وقيل:** إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم.

- **وقال زيد بن أسلم:** يبشرونه عند موته وفي قبره، وحين يبعث.

قال ابن كثير: وهذا القول - الأخير - يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً وهو الواقع.

وسياق الآيات يفهم منه أن هذه البشارة تكون في الحياة لا بعد الموت، بدلالة قوله: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي



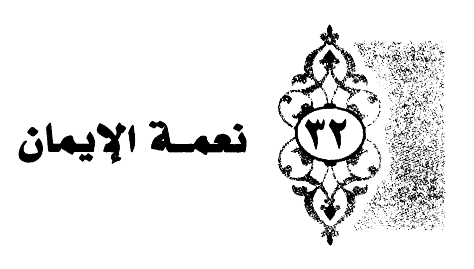
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فكيف يكون الحديث عن الحياة الدنيا عند خروجهم من قبورهم.

فيغلب على الظن أن القول الأول هو الراجح.

والآيات الكريمة بما تحمله من بشارة عظيمة لا يَعْدِلُها شيء آخر، ترشد إلى أن ذلك هو جزاء لمن ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾.

ونقول كما قال الحسن البصري: اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة.





٣٢ نعمة الإيمان

قال الله تعالى:

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

جاء في سبب نزول هذه الآية: أن بني أسد جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك، فنزلت.

وبغض النظر عن سبب النزول فإن الآية الكريمة تقرر حقيقة كبيرة قد يغفل عنها كثير من الناس.

«إن الإيمان هو أكبر المنن التي ينعم الله بها على عبد من عباده، فليس هناك من مِنّة تعدله أو تقاربه من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع».

ما قيمة الإنسان بغير عقيدة وبغير إيمان؟!

ما قيمة الإنسان بغير أهداف كبرى وغايات سامية يسعى لتحقيقها؟!



ما قيمة الإنســـان عندما تكون حياته كلها أكل وشرب ونوم، ثم يتكرر ذلك كل يوم؟!

إنه عندما يفقد هـــذه القضايا يفقد إنســـانيته.. ويفقد كرامته التي منحه الله إياها ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ وتصبح حياته كحياة الحيوان الذي لا هدف له إلا اشباع غريزته في الأكل والشرب والجنس.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ كمـــا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الأنعام عاشـــت بغريزتها إذ لم تُمنح العقـــل، ولكن هذا الإنسان ترك عقله وعاش بغريزته، فكانت الأنعام أعلى منه قدراً.

إن الله تعالى خلـــق الجن والإنس لعبادتـــه.. وحينما ينحرف إنســـان عن فطرته ويشـــرك بالله أو يكفر به، فإنه يضيع غاية وجوده، فاستحق أن يضيع، ويفقد أكبر نعمة وضعهـــا الله بين يديه وهـــي «الإيمان»... إنهم نســـوا الله فنسيهم.

إن من واجب كل مؤمن أن يلهج لسانه باستمرار ثناء على الله وحمداً له على نعمـــة الإيمان التي تفضَّل الله بها عليه، وجعله من أهلها، ومنَّ عليه بها.

❀ ❀ ❀

٣٣ الفـرار إلى الله

قال الله تعالى:

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات: ٥٠].

الفرار: هو الهروب.

والفرار يكون ـ طبيعة ـ عند وجود شيء مخيف.

وفي **الفرار:** لا يحدد الهارب اتجاهه لشدة ما أصابه من خوف، بل يسلك أي مسلك أو طريق يواجهه ويكون أقرب إليه.

وفعل الفرار عادة يعدَّى بالحـرف (من) كما ورد في الحديث الشـريف (**وفرَّ من المجذوم فرارك من الأسـد**) وليس بـ (إلى).

وفي الآية الكريمة: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

فالفرار هنا إلى الله حيث الأمن الطمأنينة.

والفرار هنا إلى اتجاه واحد لا غير، إلى الله تعالى.



فإذا أصاب الإنسان خوف أو شدة فليفر إلى الله تعالى وليلجأ إليه سبحانه.

إن اســتعمال الفرار بهذا المعنى أمر عجيب وفيه من البلاغة ما لا يمكن لفعل آخر أن يقوم مقامه.

إنه اللجوء إلى الله تعالى بســرعة الهارب الذي يريد اقتناص الوقت ليبقي على حياته.

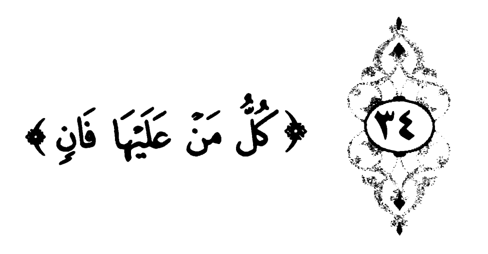
قال ابن عباس: فروا منه إليه واعملوا بطاعته.

وقال غيره: اهربوا من عــذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة.

وإن المسلم ليقف أمام الآية طويلاً.. فالإنذار في نهاية الآية من الله والفرار إليه، فهو إنذار أراد به الخير لهم، فإنه يحذرهم ويوجههم إلى حيث ينبغي أن يلجؤوا ويجتهدوا، إنها رحمة الله بعبادته، فمع الإنذار توجيه للنجاة.

إن الرســالة التي تحملها الآية هي توجيه المسلم إلى ســرعة اللجوء إليه تعالى والاســتعانة به كسرعة الخائف الملهوف إلى مأمنه.

❀ ❀ ❀



﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾

قال الله تعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

«في ظل هذا النص القرآني تخفت الأنفاس، وتخشع الأصوات، وتسكن الجوارح... وظلُّ الفناء يشمل كل حي، ويطوي كل حركة، ويغمر آفاق السماوات والأرض.. وجلال الوجه الكريم الباقي يظلل النفوس والجوارح، والزمان والمكان، ويغمر الوجود كله بالجلال والوقار.

ولا يملك التعبير البشري أن يصور الموقف، ولا يملك أن يزيد شيئاً على النص القرآني، الذي يسكب في الجوانح السكون الخاشع، والجلال الغامر، والصمت الرهيب، والذي يرسم مشهد الفناء الخاوي، وسكون الموت المخيم بلا حركة»[1].

---

(١) الظلال.



قال ابن كثير: «يخبر الله تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السماء إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم».

إن العيش في ظلال هذه الآية، يجعل القلب في خشوع، والجسم في رعشة والفكر يتصور المشهد الرهيب.. ويبقى الواحد الأحد ذو الجلال والإكرام سبحانه وتعالى .





٣٥ القسـم العظيم

قال الله تعالى:

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠].

إنه قسم من الله تعالى على أن ما جاء به رسول الله ﷺ هو الكتاب المنزّل من اللوح المحفوظ، حيث لا يمسه إلّا المطهّرون، إنه القـرآن الكريم الذي هـو تنزيل من رب العالمين.

إنه خطاب موجّه إلى المكذبين بهذا القرآن.

«والمخاطبون يومذاك لم يكونـوا يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل، الذي يدركونه بعيونهم المجرّدة، ومن ثم قال لهم: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ فأما نحن اليوم فندرك من عظمة هذا القسـم المتعلقة بالمقسم به،



نصيباً أكبر بكثير مما كانوا يعلمون، وإن كنا نحن أيضاً لا نعلم إلا القليل من عظمة مواقع النجوم.

وهذا القليل الـــذي وصلنا إليه بمراصدنـــا الصغيرة، المحدودة المناظيـــر، يقول لنا: إن مجموعـــة واحدة من مجموعات النجوم التي لا تحصى في الفضاء الهائل الذي لا نعرف له حدوداً... مجموعة واحدة ـ هي المجرة التي تنسب إليها أسرتنا الشمسية ـ تبلغ ألف مليون نجم.

ويقول الفلكيون: إن هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم، ما يمكـــن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيســـي لنجم من مجال نجم آخـــر، أو يصطدم بكوكـــب آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد، وبعيد جداً، إن لم يكن مستحيلاً.

هذا طرف من عظمة مواقع النجـــوم، وهو أكبر كثيراً جداً مما كان علمه المخاطبون بالقرآن أول مرة»[1].

---

(١) الظلال.

إن هذا القسم ـ وحده ـ لدليل على أن هذا القرآن من عند الله، ولا يحتاج ذلك إلى دليل آخر.

إنه قسم عظيم، والمقسَم عليه عظيم، والمقسِم ﷻ عليٌّ عظيم.

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وصدق الله رب العالمين.

❀ ❀ ❀



٣٦ مثل الحياة الدنيا

قال الله تعالى:

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

هذه الآيـة الكريمة تبيّـن حقيقة الحيـاة الدنيا وتبدأ بكلمة: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ ﴾ فهي تلفت النظر وتنبه المخاطبين إلى الإصغاء ليعلموا ما يلقى إليهم.

فالحياة الدنيا لعب ولهو.

ثم تضرب المثل لذلك.

ثم تقرر حقيقة الآخرة وما فيها.

«والحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي، وتوزن بموازينها، تبدو في العين وفي الحس أمراً عظيماً هائلاً، ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود، وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئاً زهيداً، وهي هنا في هذا التصوير تبدو لعبة أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة من جدٍ تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة.

لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر، وتكاثر.

هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جدٍ حافل، واهتمام شاغل..

ثم يضرب القرآن مثلاً على طريقته المبدعة ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾.

والكفار هنا هم الزراع، والزارع يكفر أي يحجب الحبة ويغطيها في التراب.

فالزارع يزرع الحب، ويعجب بنباته بعد نزول الغيث.. ثم يهج هذا الزرع فيصفَّر لونه بعد أن كان أخضر نضراً، ثم يكون بعد ذلك حطاماً يابساً متكسراً.

هكذا الحياة الدنيا، تكون أولاً شابَّة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء.



أما الحياة الآخرة فلها شــأن آخر، شــأن يســتحق أن يحسب حسابه، ويستعد له.. فهي لا تنتهي في لمحة كما تنتهي الحيــاة الدنيا، وهي لا تنتهي إلــى حطام كالنبات الذي بلــغ أجله، ولكنهــا ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾.

وأما الحياة الدنيا فهي متاع الغرور.

وهكذا فالآية الكريمة تضع بين أيدينا حقيقتين:

ـ حقيقة الحياة الدنيا.. وأنها متاع الغرور.

ـ وحقيقة الحياة الآخرة وأنها ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾.

وبعد هذا البيان يأتي التوجيه القرآني الكريم ليقول:

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

❀ ❀ ❀



٣٧ أثـر الإيمان بالقدر

قال الله تعالى:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣].

المصيبة: هي واحدة المصائب، وهي الأمر المحزن أو المزعج.

والمصيبة في الأرض؛ كالجـدب والكوارث الطبيعية كالزلازل والفيضانات وما تخلِّفه وراءها.

والمصائب في الأنفس؛ كالمرض والموت وفقد الأموال..

يخبر الله تعالى: أنه مـا من مصيبة تقع في الأرض أو في الأنفس، إلا وهي مكتوبة في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الأنفس.

وما أخبرنا الله تعالى بهذا إلا رحمة بنا وفي سبيل مصلحتنا، وذلك واضح في قوله: ﴿لِّكَيۡلَا﴾ فهذا تعليل يوضح الفائدة لنا من هذا الإخبار.

وإذا استقرت هذه المعلومة في وعي الإنسان وعلم أن كلّ ما يقع في هذه الحياة من مصائب ونِعَم قد سبق تقديرها، فإنه يستفيد من ذلك في أمرين:

الأول: إذا وقعت به مصيبة أو فاته شيء من خير كان يسعى لتحصيله، لم يحزن لأنه يعلم أنه لو قدر له ذلك لم يفته، ولأنه لو قدر له شيء لكان.

الثاني: أنه إذا جاءته نعمة من نِعَم الدنيا، علم أنها مقدّرة له، ولذلك لم يفرح بها الفرح الذي يوصله إلى البطر والاختيال والفخر، فإنما وصلت إليه هذه النعمة بتقدير الله تعالى.

إن عدم التأسف على ما فات، وعدم الفرح المبطر بالنعم، يجعل الإنسان في صحة نفسية وتوازن، وهذا أمر مفيد له في ذات نفسه، وفي تعامله مع من هم حوله.

قال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً، والحزن صبراً.

٣٨ محاسبة النفس

قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٨ ـ ١٩].

هذه الآية الكريمة أصل في محاسبة النفس.

فقوله: ﴿مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾، غدٍ: هو اليوم الذي يأتي بعد اليوم الذي أنت فيه، والمراد هنا: يوم القيامة، وإنما عبَّر عنه بذلك للنظر إلى قربه، وأنه ليس ببعيد.

وقوله: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ﴾، أي: تنظر فيما قدَّمت وادّخرت من الأعمال، فإن كانت صالحة حمدت الله تعالى، وإن كانت غير ذلك بادرت إلى التوبة والاستغفار ورد الحقوق إلى أصحابها.



وهذه المحاسبة أمر مهم، لأنها الميزان الذي يصحح المسار، وإنما يداوم عليها من كُتبت له السعادة.

وقد اعتنى بهـذا الأمر السـلف الصالح ابتـداءً من الصحابة ومن أتى بعدهم:

- **قال عمر** ﷺ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزِنوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، تزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٨].
- وكتب إلى بعض عمَّاله فقال: أنْ حاسـب نفسك قبل حساب الشدّة، فإنه مَن حاسـبَ نفسه في الرخاء قبل حساب الشـدة، عاد مرجعه إلى الرضا والغبطة، ومن ألهته حياته وشـغله مهواه؛ عاد مرجعـه إلى الندامة والحسرة.
- وقال عبد الله بن عباس ﷺ: ما انتفعت بكلام أحد بعد رسـول الله ﷺ كانتفاعي بكتاب كتب به إليّ عليّ بن أبي طالب، فإنه كتب إليَّ:

أما بعد: فإنَّ المرءَ يسـؤوه فوت ما لم يكن ليدركه، ويسرّه دركُ ما لم يكن ليفوته، فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك، وليكن أسـفك على ما فاتك منها، وما نلت

من دنياك فلا تكثرنَّ به فرحاً، وما فاتك منها فلا تأسَ عليه حزناً، وليكن همّك فيما بعد الموت.

- وقال الحسن البصري: لا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته.

وإنما المؤمن قوّام على نفسه، يحاسب نفسه لله، وإنما خفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقَّ الحساب يوم القيامة على قومٍ أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة.

- وقال الحارث المحاسبي: اجعل المراجعة شغلاً لازماً، وكن وقَّافاً، كما قال الأول: المؤمن وقَّاف، وليس كحاطب ليل.

قف وطالع زوايا ضميرك بعينٍ حديدةِ النظر، نافذةِ البصر.

فإذا رأيت أمراً محموداً، فاحمد الله، وامضِ، وإذا رأيت مكروهاً، داركته بحسن المراجعة، واستقصيت فيه.

- وقال ابن القيّم: إذا كان العبد مسؤولاً ومحاسباً على كل شيء، على سمعه وبصره وقلبه، كما قال تعالى:



﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فحقيقٌ به أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب.

إنَّ النظر فيما يقدِّمُ الإنسان لغدهِ، أخذَ من تفكير السلف مساحة كبيرة، وكان عامة القوم يحاسب الإنسان منهم نفسه على ما صدر منه في يومه قبل نومه، فإن وجد خيراً حمد الله، وإن وجد غير ذلك استغفر الله، وإن وجد حقاً للناس عزم على إرجاعه لأهله في اليوم التالي.. وعزم على الاستقامة في اليوم التالي إن كُتبت له الحياة.

وكان بعضهم يجري هذه المحاسبة بعد صلاة الفجر.

- قال سفيان الثوري: انظر ـ يا أخي ـ أن يكون أمرك ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس: التفكير في يومك الذي مضى، فما كان من طاعة الله فاستقم عليه، وما كان من معصية فانزع عنها، ولا تُعِدْ فيها يديك، فإنّك لا تدري أتستكمل يومَك أم لا، وإنَّ التوبة مبسوطة، وترك الذنب أيسر عليك من طلب التوبة، والتوبة النصوحة هي الندامة لا رجعة فيها.

تلك أقوال بعض الأئمة في أمر حساب النفس، بناءً على ما فهموه من الآية الكريمة.

وفي الآية ثلاثة أوامر:

الأول: الأمر بتقوى الله تعالى، وهو نصٌّ عام.

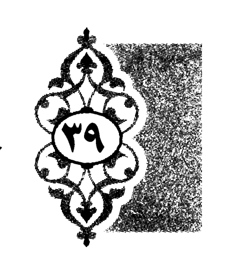
والثاني: الأمر بمحاسبة النفس، وهو النظر في الأعمال التي قدَّمها لنفسه، وهو أمرٌ خاص بعد الأمر العام.

والثالث: الأمر بتقوى الله، وهو تأكيد للأمر الأول، وربما كان تأكيداً للأمر الثاني بمعنى الإخلاص في محاسبة النفس.

والآية الثانية مشعرة بسياقها أنَّ مَن لم يعمل بالآية الأولى يكون من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم فكانوا من الفاسقين.

وهو تأكيد أخر ضمني دافع إلى الالتزام بالعمل بما ورد في الآية الأولى مما يشعر بمكانة هذا الأمر الذي يعني المراقبة الدائمة للنفس وتقويم سلوكها.

❀ ❀ ❀



خطر الانشغال بالأموال

قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

قال تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ﴾ [الكهف: ٤٦]، والزينة تشغل الإنسان، ولذلك فهي ملهاة ومشغلة إذا لم يكن قلب المسلم متيقظاً.

والآية تنهى المؤمنين أن تكون أموالهم وأولادهم مستغرقة كل أوقاتهم فلا يبقى الوقت الذي يذكرون الله فيه.

على أنَّ المسلم المنضبط مع الخطوط العريضة لهذا الدين لا يمكن أن يصل إلى هذه الحالة فالصلوات الخمس من ذكر الله.



والمسلم الذي يشعر بمراقبة الله تعالى في أعماله فيبتعد فيها عما حرّم الله لن يصل إلى هذه الحالة.

والمسلم الذي بنى بيته على الإسلام وربّى أبناءه عليه.. لن يصل إلى هذه الحالة.

ولكنّه عندما يشغله تنمية أمواله بحجّة أنه يصنع مستقبلاً لأبنائه، فإنَّ الشيطان سينتقل به شيئاً فشيئاً حتى يلهيه عن ذكر الله.

فربما أغراه بتأخير الصلاة لإتمام صفقة تجارية، بحجة أنَّ الوقت متّسع، ثم ينتقل به مرحلة أخرى في جمع وقتين معاً كالظهر والعصر.. إلى يصل إلى التهاون بالصلاة.. وهكذا حتى يلهيه بما يشغله عن ذكر الله.

ومن شغلته أمواله وأولاده عن ذكر الله فهي الخسارة الكبرى.. التي يحذّرنا الله تعالى أن نقع فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: من ألهاه ماله وأولاده عن ذكر الله فهو الخاسر، الخسارة التي لا تعوَّض، كما



قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥].

❀ ❀ ❀



٤٠ أدقُّ الحساب

قال الله تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وهكذا فـ «الذرّة» هي وحدة القياس الذي سيجري به الحساب يوم القيامة، وكان المفسرون القدامى يقولون: إنها الهباءة التي ترى في ضوء الشمس عندما يدخل الغرفة عبر نافذتها.. كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة.

ونعلم اليوم أنَّ الذرّة شيء محدد يحمل هذا الاسم، وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التي ترى في ضوء الشمس، فالهباءة ترى بالعين المجردة، أما الذرة فلا ترى أبداً حتى بأعظم المجاهر بالمعامل، إنما هي «رؤيا» في ضمير العلماء، لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره، وكل ما رآه هو آثارها.



فهذه «الذرّة» في ثقلها، من خير أو شر، ستحضر يوم القيامة ويراها صاحبها ويجد جزاءها.

فينبغي أن لا يحقر الإنسان شيئاً من عمله، خيراً كان أو شراً، ولا يقول هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن، والمسلم يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله ارتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرّة أو تشيل.

إن هذا الميزان لم يوجد له نظير أو شبيه بعدُ في الأرض.. إلا في قلب المؤمن.

تلك هي «الذرّة» التي سيكون الحساب يوم القيامة بموجبها.

وقد فهم الصحابة ﭬ مقياس هذه الوحدة، وعاملوا أنفسهم على أساسها.

جاء في مسند الإمام أحمد عن صعصعة بن معاوية ـ عم الفرزدق ـ أنه أتي النبي ﷺ فقرأ عليه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ قال: حسبي، لا أبالي أن لا أسمع غيرها.

لقــد كانت هذه الآيــة الكريمة لدى هــذا الصحابي الكريم كافيــة ليتخذها ميزاناً طول حياتــه الدنيا يزن بها أعماله.

وجاء في «الموطأ» للإمام مالك، عن عائشــة ﵂، أن مسكيناً وقف على بابها، وبين يديها عنب، فقالت لإنسان كان عندها: خــذ حبَّة فأعطــه إياها، فجعل ينظــر إليها، ويعجب من قولها، فقالت عائشة: أتعجب من قولي؟ فكم ترى في هذه الحبة من مثال ذرّة.

وفي صحيح البخاري قوله ﷺ لعدي بن حاتم: (**اتقوا النار ولو بشق تمرة**).

وفي المسند وعند ابن ماجه والدارمي: عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: (يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله ﷻ طالباً).

إن أعمال الإنســان محصاة عليه صغيرهــا وكبيرها، خيرها وشرها، في كتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

إن الرسالة التي تحملها هذه الآية تقتضي من المسلم الحريص على نجاة نفسه ـ يوم لا يشفع مال ولا بنون ـ أن



يراقب نفســـه فيما يصـــدر عنه من خير وشـــر، أما الخير فليحمد الله عليه، وأما الشر فليتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحها، وليأت الله بقلب سليم.





خاتمـــة

وبعد:

هذا ما يسَّــر الله جمعه في هذه الرســالة المختصرة، وكانت الغاية منها أمران:

الأول: التذكير بكيفية تعامل السلف ـ رحمهم الله ـ مع القرآن الكريم، تلاوة واستماعاً، وتدبراً، وعملاً بما جاء به، وأدباً معه.

الثاني: ذكر نماذج من التدبر لآيات كريمة، باعتبارها رسائل أُنزلت للعمل بها.

وإن أهم ما ينبغي التحذير منه، هو هجر القرآن الكريم بأي وجه من الوجوه التي سبق الحديث عنها.

واللهَ المرجو أن ينفع بهذا العمل، ويجعله خالصاً له.



إنه جواد كريم، ونعم المسـؤول. وصلّى الله على سـيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الفهـــرس

الفصل الأول
توثيق الصلة بالقرآن الكريم



الفصل الثاني
رسائـل قرآنيــة



صدر للمؤلف

أولاً ـ السُنَّة المطهرة

١ ـ الجامع بين الصحيحين (٥ مجلدات).

٢ ـ الوافي بما في الصحيحين.

٣ ـ زوائد السُنن على الصحيحين (٧ مجلدات).

٤ ـ زوائد الموطأ والمسند على الكتب الستة (٣ مجلدات).

٥ ـ زوائد ابن خزيمة وابن حبان والمستدرك على الكتب التسعة (٣ مجلدات).

٦ ـ زوائد السُنن الكبرى للبيهقي على الكتب الستة (٣ مجلدت).

٧ ـ زوائد الأحاديث المختارة للمقدسي على الكتب التسعة.

٨ ـ تحقيق الجميع بين الصحيحين للموصلي (في مجلدين).

٩ ـ العناية بالأدب المفرد للإمام البخاري.

١٠ ـ تحقيق مشارق الأنوار للقاضي عياض (٣ مجلدات).

١١ ـ جامع الأصول التسعة (١٤ مجلداً).

١٢ ـ مسند الإمام أحمد (محذوف الأسانيد والمكررات) (٦ مجلدات).

١٣ ـ معالم السُنَّة النبوية (٣ مجلدات).

١٤ ـ الأحاديث النبوية الكلية.



ثانياً ـ في السيرة النبوية الشريفة

١ ـ من معين السيرة.

٢ ـ من معين الشمائل.

٣ ـ من معين الخصائص النبوية.

٤ ـ السيرة النبوية (تربية أُمة وبناء دولة).

٥ ـ سيرة النبي ﷺ في بيته.

٦ ـ تحقيق المواهب اللدنية للقسطلاني (٤ مجلدات).

٧ ـ أضواء على دراسة السيرة.

٨ ـ هكذا فهم الصحابة،

٩ ـ أهل الصفة (بعيداً عن الوهم والخيال).

١٠ ـ الغرانيق، (قصة دخيلة على السيرة النبوية).

١١ ـ المهذب من الشفاء للقاضي عياض.

ثالثاً ـ مشروع تقريب تراث ابن القيم رحمه الله:

صدر منه عن المكتب الإسلامي

١ ـ تقريب طريق الهجرتين.

٢ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب.

٣ ـ سيرة خير العباد.

٤ ـ البيان في مصائد الشيطان.

٥ ـ القضاء والقدر.

٦ ـ قل انظروا.

٧ - فضل العلم والعلماء.
٨ - الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.
٩ - الهدي النبوي في العبادات.
١٠ - الهدي النبوي في الفضائل والآداب.
١١ - الروح.

وصدر عن دار القلم:
١٢ - إعلام الموقعين (٤ مجلدات).
١٣ - طب القلوب.
١٤ - الجواب الكافي (الداء والدواء).
١٥ - المهذب من مدارج السالكين.
١٦ - فضل الصلاة على خاتم الأنبياء.
١٧ - فصول في الاعتقاد.
١٨ - زاد المعاد (تحت الطبع).

رابعاً - في الرقائق والأخلاق:

١ - مواعظ الصحابة.
٢ - المهذب من إحياء علوم الدين (في مجلدين).
٣ - تحقيق رسالة (شرح المعرفة) للمحاسبي.
٤ - تهذيب حلية الأولياء للأصبهاني (٣ مجلدات).
٥ - سلسلة مواعظ السلف: صدرت في عشرين عدداً:



- مواعظ الإمام الحسن البصري.
- مواعظ الإمام سفيان الثوري.
- مواعظ الإمام عمر بن عبد العزيز.
- مواعظ الإمام مالك بن دينار.
- مواعظ الإمام سلمة بن دينار.
- مواعظ الإمام إبراهيم بن أدهم.
- مواعظ الإمام عبد الله بن المبارك.
- مواعظ الإمام الفضيل بن عياض.
- مواعظ الإمام الشافعي.
- مواعظ الإمام أبي سليمان الداراني.
- مواعظ الإمام الحارث المحاسبي.
- مواعظ الشيخ عبد القادر الجيلاني.
- مواعظ الإمام ابن الجوزي.
- مواعظ شيخ الإسلام ابن تيمية.
- مواعظ الإمام ابن قيم الجوزية.
- مواعظ الإمام الغزالي.
- مواعظ الإمام أحمد بن حنبل.
- مواعظ الإمام زين العابدين.
- مواعظ الإمام الجنيد.
- مواعظ الإمام الأوزاعي.



خامساً ـ دراسات جمالية

١ ـ الظاهرة الجمالية في الإسلام.
٢ ـ ميادين الجمال.
٣ ـ التربية الجمالية.
٤ ـ الجمال في منهج الإسلام وتشريعه.
٥ ـ الفن الإسلامي (التزام وإبداع).

سادساً ـ موضوعات أخرى

١ ـ محبة الله ورسوله شرط في الإيمان.
٢ ـ الفرائض فقهاً وحساباً.
٣ ـ نظرات في هموم المرأة المسلمة.
٤ ـ الإمام الغزالي (سلسلة أعلام المسلمين).
٥ ـ الإمام ابن قيم الجوزية (سلسلة أعلام المسلمين).
٦ ـ الإمام ابن الجوزي يتحدث عن نفسه (تحت الطبع).
٧ ـ الإسلام دين التيسير.
٨ ـ رضيت بالإسلام ديناً.
٩ ـ نداء الإيمان في القرآن.
١٠ ـ فصول في إصلاح النفس والمجتمع.
١١ ـ الصلاة الصلاة (آخر ما تكلم به النبي ﷺ).
١٢ ـ في سبيل حياة اجتماعية أمثل.